مكتبة رواية

أندريا ديل فويغو

ترجمها عن البرتغالية: سعيد بنعبد الواحد

آل مالاكياس

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

آل مالاكياس

أندريا ديل فويفو

Author: Andréa del Fuego,
Os Malaquias
Copyright ©

Translated from Portuguese by:
Saeed Benabd Al Wahed

Design by:
Digitalized Kuwait

ترجمها عن البرتغالية:
سعيد بنعبد الواحد

الإخراج الفني:
ديجيتليزد كويت

الطبعة الأولى | سبتمبر 2020
ISBN: 978-9921-712-36-0
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية – دولة الكويت:
2020/0896

دار الخان للنشر والتوزيع

+965 99462219 / +965 51088000
@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

رواية

آل مالاكياس

أندريا ديل فويفو

ترجمها عن البرتغالية

سعيد بنعبد الواحد

2020

Andréa del Fuego

Os Malaquias

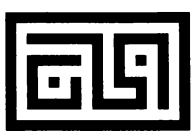

2020

إلى شخصيات هذه الحكاية

1

جبالُ سيرّا مورينا وعرةٌ، ورطبة وخصبة.

عند سفحها يسكن آل مالاكْياسْ، نافذةٌ بحجم الأبواب، وبابٌ له سلطة الخشب الداكن.

ـ أسرع، يا أدولفو!

كانت دونانا تطلب مساعدة من زوجها، الذي غرس الفأس في الخشب ولبّى نداءها. كان الطّستُ يلمع في قعر الصهريج، فأنزل أدولفو الحبل بعد أن ربط الدلو في طرفه، ثم أدخله في الدّلو وراح يسحبه من جديد عبر الجدار. لم تعد المرأة قادرة على حمل الثقل بسبب عظامها الهشّة. كانت تبارك الأطفال، فتدرُّ عليها الصلوات فوبا[1] وقهوة وحليبا. كانت بيضاء وردية اللون، بشفتَين دقيقتَين. باستثناء أفراد عائلة مالاكياس، كان كلّ السكّان سُمرًا داكنين مثل ثدييات الأدغال.

تحلّق الأطفال حول البئر، وكانت المياه الجوفية تعكس ثلاثة أزواج من الأيادي، وكلّ زوج منها يشكّل بروزاً لأنف واحدة وعينَين لامعتَين: كان نيكو ذا عينين زرقاوين، وهو يبلغ من العمر تسع سنوات. أنطونيو، الطفل الصغير، ستًّا. وجوليا، المتكرّشة، أربعًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١) طحين الذرة تُحضّرَ منه أكلة تشبه العصيدة في البرازيل. (المترجم)

2

آووا جميعهم ليضطجعوا. كان الليل مشحونًا، والريح تهزّ النوافذ. القراميدُ ترتعش، وقد تنشأ العاصفة داخل البيت في أيّ حين ولحظة. كان الأبوان ينامان في غرفة. نيكو، جوليا وأنطونيو، في غرفة أخرى، في السريرِ نفسِه، متكوِّرين مثل أجِنّة.

مطّ قطّ أرجلَه، توتّرت الجدران. ضغْطُ الهواء سحقَ الأجسادَ فوق الفراش، اشتعل البيتُ بكامله ثم انطفأ، مصباحاً وسط الوادي. دوّى الرعدُ طويلًا حتّى بلغ الجهة الأخرى من الجبال. الأرضُ تحت البناية، بشِحنتِها السلبية، تلقّت الصاعقة الإيجابية من سحابة عمودية. والتقت الشِّحنات غيرُ المرئية في بيت آل مالاكياس.

كان قلب الزوجَين في حالة انقباض، حين ينغلق الوتين. ومع المسار المنقبض، لم تتمكّن الشّحنة من اختراقهما كي تصلَ إلى الأرض. عند سقوط الصاعقة، استنشق الأبُ والأمُّ هواءً، فتلقّت عضلةُ القلب ضربةً لم تستطع أن تَصْرفَها. رفعت الومضة من حرارة الدم إلى مستويات شمسية فأحرقت كلّ شجرة الشرايين الدموية. حريقٌ داخليٌّ جعل القلب حِصانا جامحا أنهى عدْوَه في دونانا وأدولفو.

لدى الأطفال، عند ثلاثتهم، كان القلبُ منبسطا، والمسار

السريع منفتحا. المسار الممدّدُ لم يَعُق مجرى التيّار الكهربائي فتابعت الصاعقة رحلتها عبر قمْع الوتين. ودون أن يتأثّر العضو، أصيب الثلاثةُ بحروق هيِّنة وغير مرئية.

استيقظ نيكو ولم يغيّر وضعيّته، متوتّرا، فانتظر طلوع النهار. لم يحُل المطرُ دون بزوغ الفجر، وظلّ الديك أخرسَ. في غرفة الوالدين، دخلت الشمس عبر القراميد المكسّرة، وكان الزوجان جامدَين فوق السرير، لكن لا أحد قد يقول إنّ شرارة نار قد أحرقتهما من الداخل. كان الفراش وحافّة القرميد مُسْودين. اقترب نيكو من هناك وعاين الصراع بين الضوء والجسد. فتح أنطونيو عينَيه مصدومًا. كانت جوليا متيقّظة، لكنّها لا تتحرّك، ولا تفتح عينيها، فحسبها نيكو ميتة. أمسك أنطونيو من يديه، عبرا القاعة، وتابعا سيرهما عبر الطريق التي قادتهما نحو السياج. وظلاّ معًا جالسين تحت شجرة صغيرة.

نخس أنطونيو ذراع نيكو؛ لأنّ الجوع أزعجه. عاد نيكو إلى البيت وكان كلّ ما وجده قطعة حلوى دسّها في جيبه المبلّل. سمع جلبة في الغرفة، كانت جوليا مفزوعة. ما إن نزلت من السرير، حتّى رفعها نيكو بين ذراعَيه، وساقاها الطويلتان تضربان ركبته.

مضغ نيكو الحلوى؛ تكوّر الآخران بعضهما على بعض. ظهرت بقرات عند طرف الطريق، وخلفها مراهق يُمسك غصنًا في يده، ماء جامد يقطر من قبّعته، فنشّفه. كان الإخوة

يرتعشون، بشفاه بنفسجية، وأقدام باردة.

ـ نيكو!

كان تيموتييُو عاملًا لدى جيرالدو باسوس، صاحب مزرعة ريّو كْلارو. ذهب تيموتييُو حتّى بلغ بيت آل مالاكياس، دخل وخرج راكضا. لم يقل شيئا. أرْكب الثلاثة فوق حِصان من دون سرج كان يسير إلى جانب قطيع الأبقار وتابع رحلته. عندما رأى جيرالدو أمامه الأطفال الثلاثة، مصطفّين في تراتب من أصغرهم إلى أكبرهم، أمر الخادمة العجوز أن تجلب القهوة.

ـ تيموتييُو، غدا سوف تأخذ الصغيرَين إلى بيت الراهبتَين الفرنسيتَين. أمّا الأكبر، فأحتفظ به معي.

نام الثلاثة معًا فوق السجاد، في خطّ لولبي مستقيم، قُرب سرير تيموتييُو. قبل أن يغادر الغرفة، احتفظ نيكو بما تبقّى من الحلوى في جيب أخته.

ـ لا تبْكِ، سأبحث عنكما.

مسحت الصغيرة وجهها بحاشية اللباس فسقطت الحلوى على الأرض. التقطها أنطونيو واحتفظ بها في جيبه، معاتبا أخته. أخذ تيموتييُو أنطونيو وجوليا على متن الحِصان. رحلة ستّ ساعات حتى المدينة الصغيرة.

ـ من أين هما؟ قالت الأخت ماري.

ـ مات والداهما مصعوقَين بعد أن نزلت صاعقة على البيت. وقد بقي أخوهما الأكبر في المزرعة، حيث احتفظ به السيّد جيرالدو.

أخذت ماري الطفلَين إلى فناء، حيث كان عليهما أن ينتظرا كي تعدَّ لهما سريرًا في إحدى الغرف.

3

ـ افتح فمك.

فتح نيكو فمه فكشف عن لوزة ملتهبة في حلقه.

ـ تيزيكا، اذهبي وأحضري أعشاب شاي؛ لأن به آلام حنجرة. غدًا سوف يبدأ العمل في حقل البُنّ، أمر جيرالْدو.

كانت تيزيكا تعتني بالبيت وتصنع كلّ ما بوسعها من كوز الذرة: عصيدة، نارا، أوراق تبغ، زَيْتا، وكوراوْ[1]. عالجت نيكو بأيّ عشب من الأعشاب، وتظاهرت بأنّها تقدّم له الدواء المناسب. تركت حلقه ينتفخ إلى أقصى حدّ ممكن، حتى لا يشتغل في الحقول تحت الشمس. كانت تحمل قطعة حلوى إلى غرفة نيكو وتسأله:

ـ كيف كان جسد أمّك؟

لم تنعم الخادمة بالراحة منذ وصول الطفل. وذات صباح، ذهبت لتقابل السيّد:

ـ سأحتفظ به لنفسي.

ـ أن يكون ابنك فهذا لا يغيّر في الأمر شيئًا؛ لأنني سأدفع به للعمل في كلّ الأحوال. غدًا سوف يساعد أوزوريو في اختيار

(١) طعام لينّ يُحضّر من الذرة النيئة لتي تُطهى مع الحليب والسكر. (المترجم)

بذور البُنّ، هناك في الحقل.

في اليوم التالي، أخبرت تيزيكا سيّدها أنّ الطفل يعاني من الحُمّى، وأنه لذلك لن يكون عمله ذا مردود، وأنّ الأمر لا معنى له؛ لأنه قد يزيد من متاعبه.

ـ لقد فَقَدَ نيكو أُمًّا أولى. وفي سنّك أنت، لن يتأخّر كثيرًا كي يفقد أُمًّا ثانية، أجابها جيرالدو.

توالت الأيام، وكان نيكو يحمل طعام الغداء إلى العمّال في حقل البُنّ. لم تتراجع الحمّي، وظلّت عيناه تحتفظان ببقايا من الصاعقة تومض فيهما. ذات فجر، نهض نيكو وتوجّه إلى المطبخ، فلفته الجمرات في هالة حمراء، وكانت حبّات الذرة تتفرقع في النار، ومصفاة الماء الطينية جافّة وفارغة.

ـ اذهب لتنام أيّها الصغير. قالت تيزيكا وهي ترتدي قميص نوم.

انحنت عليه فشعرت بالحمّى، التي قد لا تتأخّر كثيرًا في أن تقتل الأنزيم الذي يُحوّل طحين القمح إلى خلية بشرية. ذهبت إلى الصهريج لتجلب ماء. أخذت معها الطفل، الذي تشرّب برد الفجر. بلّلت رقبته، وذراعيه، وجبينه، وفي الأخير أهرقت السطل بكامله على الجسد النحيف، ثم جرّدته من القميص، حتّى تمتصّ رئتاه أشعّة القمر.

ـ سوف يُبردُ هذه الحمّى.

سمعت تيزيكا جلبة في الأدغال، ربّما يكون الذئب يتربّص بخمّ الدجاج. لو كان كذلك، سيخرج جيرالدو يحمل بندقيّته. وما هي إلا دقائق معدودات حتى كان السيّد يحمل بندقيّته تحت السقيفة. لم يرهما في الفناء. كان نيكو قد نام في حضن تيزيكا، التي جلست جامدةً. اقتربت الجلبة، وصاح نيكو مع الطلقة. سقط الذئب عند قدم نباتات البصل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

4

كانت جوليا ترتدي ملابس وجوارب مكويّة. وأنطونيو الشيء نفسه. كانت الراهبتان الفرنسيّتان في مهمّة بالبلدة، تحبّان الأطفال طالما أنّهم يكبرون ويردّدون ما تعلّموه على يديهما. كان الطّلْقُ والسيكيلْيو[1] يُرشّان على الخشب. وتتلّون جرار المرطّبات بعصير الفواكه الممزوج بالحليب. أوْراك مشدودة، ضلوع ناتئة، أكتاف مقوّسة. جلد ناعم، منادل ناصعة، مشابك، أصداف ليلا.

ـ ربّما تحتفظ الأسرة العربية بالصغيرة، فالطفلة مطيعة، خمّنت ماري.

ـ سوف أبعث لهم برسالة، قرّرت سيسيل، وهي تشبك يديها.

جاء الرّد بعد شهر.

«عزيزتيّ الراهبتَين، سوف آتي لأتعرّف على الطفلة الصغيرة في الخريف القادم. ليلى».

جاءت الأمُّ العربية الحاكمة تحمل حقيبتَين لتبقى بضعة أيام، فقط ما يلزمها من الوقت لتزور المدرسة الداخلية. عرضت عليها سيسيل أن تأويَها في غرفة بنافذة تطلُّ على

(١) نوع من البسكويت الهشّ يُحْضَرّ من طحين نبتة المارانتا. (المترجم)

الفناء. ومن هناك، ستراقبُ ليلى جوليا وتدرسها دون أن ينتبه إليها أحد. تدرس التصرّف، والمظهر، والحجر الخام.

ـ سوف أعود لآخذها بعد أربع سنوات.

ـ وما رأيك في أنطونيو؟

ـ أريد الطفلة فقط.

لم تخبر ماري وسيسيل جوليا بالأمر. سوف تقومان بذلك عشية رحيلها إلى العاصمة. في تلك الفترة ذهبت تيزيكا إلى المدينة لتقتنيَ أقمشةً ملوّنة فزارت -أيضًا- شقيق نيكو وأخته.

ـ شخصيًّا، قد أحتفظ بالثلاثة.

ـ لقد ضمِنَت جوليا مستقبلها. قالت ماري.

عادت تيزيكا محمّلة بأثواب وخبز بالقرفة. وبينما كان نيكو يأكل، أخبرَته أنّ جوليا سوف ترحل بعيدًا وأنه لا أحدَ يرغب في أنطونيو. وقبل أن ينام جديرالدو، ذهبت لتسخّن له الحليب.

ـ أفكّر أن آخذ معي نيكو ليرى أخاه وأخته.

ـ لا أحد يذهبُ إلى المدينة، أريدهما معًا هناك في المَيْتم.

كان تيموتييُو على حصان ينتظر عند البوّابة، يغطّي الوحلُ حذاءه، وأشعل سيجارة. أشجار سامقة، ذات قمم دقيقة، يحاولُ زيتُ الأوكالبتوس أن يخرج من أوراقها. كان نيكو

يحمل حطبًا. حزمتان فقط يُدخِلُهما إلى بيت المؤونة وينتهي العمل. أطفأ تيموتييُو السيجارة، نزل وتوجَّه نحوه. حيّاهُ نيكو، مبطئًا خطواتِه.

ـ هل تعرف السّبَاحة، يا تيموتييُو؟

ـ السباحة إلى أين؟ هل جُننتَ؟

ألقى نيكو آخر حزمة من الحطب فوق كتفِه ودخل.

5

لم يغادر نيكو مزرعة ريو كلارو منذ أربع سنوات. قسماتُ الكبار صارت تمحو وجهه الطفولي. كان يتلقّى أخبار أخيه وأخته من خلال تيزيكا، التي تزورهما كلَّ ثلاثة أشهر.

كان أنطونيو في طور تعلّم القراءة والكتابة. كان يواجه صعوباتٍ في التركيز، ولا يسمح بالاقتراب منه نظرًا لخجله. كانت جوليا تنطق مقاطع الكلمات بسهولة وتحظى بالعناية كي تحافظ على نضارتها مثل حلوى واجهة المخبز. كانوا يرشّونها بالخزامى، ويصفّفون شعرها بمشط القرن.

كانت شهادة تبنّي جوليا، أمتعتُها ووثائقها جاهزة. توقّفت العربة السوداء المصقولة أمام مدخل المدرسة. نزلت الأخت سيسيل الدرج لتستقبل الأمّ الحاكمة. قبّلت ليلى يدَ الراهبة وطلبت منها مباركتها، وهو ما حصلت عليه من خلال همهمات آليّة. ثم طلبت أن يعجّلوا بالأمر وأن يتمَّ التوديع دون مراسيم لأنّها تريد أن تستأنف الطريق على الفور.

ذهبت سيسيل لتبحث عن جوليا بينما كانت ماري تقترب.

ـ أنطونيو يبكي، إنه يريد أن يذهب أيضًا، سيّدتي...

ـ الطفلة لا غير.

كانت ليلى تنظر إلى ساعتها ذات المعصم العريض.

سعلت ماري. وصلت جوليا تجري ملفوفة في فستان أبيض بكُمّين مطرّزين. بريقُ العربة تحت الشمس اخترقها مثل سهم، فتوقّفت عند وسط الدرج. سحبتها سيسيل من ذراعها وسلّمت أغراضها إلى الأمّ الحاكمة. فاتسعت لها حقيبة صغيرة.

في الطريق، كانت جوليا تنظر إلى الجزء الخلفي من الجبال والشلالات التي تبدو، من مسافة بعيدة، متجمّدة، خيطًا أبيضَ ثابتًا، له بداية، ووسط ونهاية. في المدينة، وبعد أن اجتازت جسورًا وأنفاقًا، وشعرت بالغثيان من رتابة المسار المُنوّمة. نزلت جوليا عند باب قصر صغير.

قادتها ليلى في جولة عبر غرف المنزل. في المطبخ، قدّمت لها حساء باللّحم كان ينتظرها فوق موقد النار ونظرت إليها وهي تبتلع كلّ شيء، دون أن ترافقها في الأكل. مسحت الطفلة فمَها بمنديل ثم اقتادوها نحو بيت ملحق صغير في الخلف. وضعت ليلى حقيبة جوليا قرب سرير شخص واحد. وفي الغرفة الضيّقة كان هناك -أيضًا- دولاب، ومذياع يشتغل بالبطاريات، وخلف الباب طاولة لكيّ الملابس.

من البيت الرئيسي كانت تفوح رائحة الهيل، ورائحة العنبر من الثريّات، ورائحة الكستناء من قطع الأثاث، التي صارت برتقالية من ضوء النهار. حديقةٌ مرتّبة ومسجونة داخل أشكال غاية في الأدب، تمرُّ في أوانٍ داخل خزانة الأطباق، أوانٍ فضيّة فوق المائدة أيام الأحد. البيتُ الصغير في الخلف، وعبرَ السلم الجانبي يتمّ الولوج إلى غرفة جوليا، مأْواها وبيتُها.

6

كانت الراهبتان الفرنسيتان تستقبلان أطفالًا من كلّ أنحاء المنطقة، وتأويان اليتامى دون شروط مسبقة. تعتنيان بمظهرهم حتّى يجلبن عائلات لتتبناهم. كان أنطونيو يناهز الحادية عشرة من عمره. ذراعاهُ وساقاه أقصر من جذعه، الذي كان بدوره صغيرا بالنسبة لسِنّه.

ـ لقد وصل الدكتور كاليسْتو.

ـ سوف أذهب لاستقباله، اذهبي أنت وابحثي عن أنطونيو.

جلس كاليستو على الكرسي. بالقرب، كان هناك سرير فوقه ملاءة ووسادة، وستار سميك يغطّي زجاج المحلّ الذي اتخذ منه الطبيب عيادة مرتجلة. جاء أنطونيو يرتدي سروالا قصيرًا وقميصًا، وينتعل حذاءً ذا زمام من القطن. فحص كاليستو الطفل مدّة ساعتين. أومأ بإشارة من رأسه معلنًا نهاية الملاحظات الطبّية. ساعدت سيسيل أنطونيو على ارتداء ملابسه وقادته نحو قاعة الأكل، حيث كانوا سيقدّمون غداء العصر.

ـ أيّتها الأخت ماري، إنّه قزم. أوضح الطبيب.

ـ قزم، كيف ذلك؟

ـ قزم. وقد يتعرّض لأخطار الإصابة بأمراض الرئة أو

الوريد التاجي المرتبطة بالأشخاص المصابين بذلك يا أختي. ليس لديّ أدنى شكّ في الأمر، إنّه قزم. هل هناك حالات أخرى في العائلة؟

ـ كان ولداه سويّين.

ـ في هذه الحالة، الأجداد قد يفسّرون كبح غدد النموّ. أو ربّما يكون المشكل قد بدأ معه هو بالتحديد. أتمنّى ألّا يسمعني الربّ، بيدَ أنّني سمعت أنّ المرأة الزانية تنال عقابها من خلال طفل مختلّ.

ـ هلّا رافقتي إلى الباب يا دكتور.

ودّعت ماري الدكتور كاليستو، ومن الطابق الثاني ذهبت لتطمئن على أنطونيو. لم تكن تعرف أقزامًا، حتّى أولئك الذين يعرضونهم في الساحات. معرفةُ أنّها تأوي طفلًا قزمًا أعطاها الانطباع بأنّها يمكن أن تَلِجَ إلى مهد المجرّات. كانت ماري تودّ معرفة آليّات هذا اللغز، ولكنّها تريد في الوقت ذاته أن تظلّ بعيدة عن الظاهرة وعن العلم الذي يفسّرها. وفي الفناء، كان أنطونيو ينظّف بذراعه الحليب عن فمه. كانت له قامة مورابيس، طفلٌ في سنّ السابعة.

ـ لديّ أملٌ في أنّ أحد المزارعين سيرغب في هذا الطفل للقيام بأشغال البيت وكنس المستودع. قالت سيسيل.

في ركن من القاعة كانت هناك جيرالدينا، أُمُّ جيرالدو.

كانت حُضوراً يرافق الصغير أنطونيو. لم تكن تُرى، وهذا ما يسمح لها بالتدخّل حتى في أحلام القزم. كان الطفل ينام تسع ساعات كلّ ليلة، ويعاني من اضطرابات قلبية ترتبط بأحلامه، وبتأثير من تُرافقُه.

لم يكن أنطونيو يذكر جيدًا مظهر والديه، الذي كان يختزله في نقط تفتقد لخطّ مستقيم يجمعها. أمّا صوتُهما، فكان يذكره جيدًا، نبرة أنثوية كانت تقودُها الذاكرة حتّى دوي رعْد، من صوت حادّ إلى صوت آخر أكثر حدّة.

7

لم يُترك بيت آل مالاكياس وحده؛ إذ سرعان ما استحوذ الجيران على أغراض الأسرة. بعد موت أصحاب البيت، والأبناء الذين تفرّقت بهم السُّبُل، كان أول من يصل يأخذ ما استطاع. ثم جاء إنييدو، جار آل مالاكياس وعامل في مزرعة ريو كلارو. أخذ إنييدو كلّ شيء بسُلطة مَن له قرابة بالعائلة: مقالي، مطحنة يدوية، أغطية صوفية، وعدة كراة من صوف غزلتها دونانا دسّها في أكياس. معاجنُ، خُم، دجاجات، ديك، بطّ، وذرة ناضجة. وضع اليابسة منها في جرن، والمبلّلة في جفانٍ وقصاع.

بقي البيت فارغا. كان أهل الجوار يظنّون أنّ ملكيّته، وَفق ما اتّفقوا عليه، تعود إلى نيكو، وجوليا وأنطونيو، وأنّ إنييدو سيتكلّف به حتّى يبلغ الأطفال سنّ الرشد.

كان جيرالدو مهتمًّا بالبيت، لكن ليس بالبناية، بل بالعاصفة التي ضربته. كان يعترف بالقوى عندما تتجاوزه: الصواعق تلمس الأرض، هذا صحيح، ولكن الأمر الأكثر غموضا هو أنّها تبلغ السحب. كان يبعث تيموتيُو، من حين لآخر، ليرى كيف هو حال البيت. فقط ليري، لا ينظّف، ولا يلمس شيئًا. بعد أن أخذ الأثاث، والملابس والمؤونة، ترك إنييدو الجدران والسقف لتحوي الهواء. كان يسكن قريبًا من البيت، فلاحظ زيارات تيموتيُو نهارا، وزيارات جيرالدو ليلا. كان صاحب

المزرعة رجلا عَزَبًا لا يزال قويَّ البنية، يأخذ بعض النساء إلى الغرفة المُشيّطة. لم يكن إينييْدو يتحَدّث في الأمر مع أيّ أحد؛ لأن جيرالدو كان يملك حتّى ما ليس في حوزته.

كان إنييْدو يرصد حركات البيت المهجور. وبينما ينام أهل بيته، كان يأخذ الطريق حتّى يقترب من الأسلاك الشائكة والنباتات المتسلّقة. يتّخذ لنفسه موضعًا وهو يجلس القرفصاء، يزيل بعض الأوراق عن الحاجز ويفتح أمام عينيه حقل رؤية.

رأى جيرالدو يُنزل تقويرة فستان امرأة سمراء، وكيف كان يعريها باندفاع ثور هائج. كانت المرأة تَخْرُج من شرنقتها القُطنية، وتنفلت ذراعاها لترتميا على عنق الثور. من موضعه، كان إنييْدو يشتمُّ رائحة الأنثى. لم تكن شابّة، بل امرأة صُلبة الملمس، حميمة الجسد، قدّمت نهدها للحيوان الثديي. انتصبت المرأة، صارت عالية ومقوّسة، طريقٌ وسط ظهرها. من الرقبة إلى الحزام، كان ميزابٌ يمتلأ عرقًا. كان إنييْدو يستنشقُ أنين جيرالدو. رفع الزوجان غبارًا، وحجارة كانت تكشطها الأقدام جيئة وذهابا.

كانوا كلّهم أقوياء مثل جيرالدو، بمن فيهم إنييْدو. عند عودته، ذهب ليرى ابنتَيه النائمتَين. كانتا طفلتَين غضّتَين متعانقتَين، تغطيهما ملاءة. اقترب من الصغرى، ومرّر أصابعه بين فخذَيها الصغيرين، ثم ضغط على بخار عضوها. لم يره أحد، ولم تشعر به هي حتى تستيقظ.

لمّا عاد إلى المزرعة، خبّأ جيرالدو تحت فراشه ميدالية ملفوفة في سروال داخلي. السيّدة، بعد أن وصلت إلى بيتها، وسط نساء أخريات مثلها، شربت كأس حليب ووضعت في نقع من الماء والصابون فستانها اللّزج بعصير جيرالدو.

8

لم يكن جيرالدو هو المُزارع الكبير الوحيد، بل كان هناك آخرون، متفرّقون على شساعة الأراضي وتخومها. لم يتزوّج بسبب أمّه، التي اعتنى بها حتى ماتت. بعد أن وضعت جيرالدو، أصبحت جيرالدينا تعاني من مرض غامض. لم تكن تعاني من آلام، لكنّ عينَيها كانتا تدمعان دون توقّف وحول قُزحيتيْها السوداويين كان يتشكّل نسغ أصفر. حبلت ثلاث مرات بعد مولد جيدالدو. وعانت ثلاث مرات من نزيف حادّ، لم تستطع معه أن تحتفظ بالحياة في رحمها. الرُّضّع الذين فقدتهم، دائما بعد أربعة أشهر من الحمل، كانت تدفنهم قرب النهر. تصنع كيسا من الثوب تضع فيه الدم وموادّ أخرى من جسدها، ثم تشدّه بخيط تبن يابس وتصلّي على روح من لم تستطع أن تلده.

توفّي والد جيرالدو مع موت الرضيع الثالث. تركه الإسقاط عاجزا؛ إذ فقد قوة ساقيه، تكاسلت كليتاه وضعف ذهنه. ربّت الأُمُّ الحاكمة جيرالدو وحدها. فتكلّف الابن بكلّ شيء دون خوف، ودون تحفّظ. كان صوتُه طافحا، له نبرة بوق، بيد أنه أقلّ فتورا.

توفّيت جيرالدينا باسوس ذات بداية صيف، لكن دفن الجثّة لم يمحُ الوجه. بقي ما يشبه الذكرى، التي مهما كانت دقيقة وشفافة إلا أنها كانت ذات بنية، وظلّت منظّمة ومادية.

أصبحت أخفَّ من غبار فوق علبة مساحيق لم تصقل جيّدا، يمكن لنَفَس إنسان أن يرفعه ليظلّ معلّقا في الهواء.

خلال الشهور الأولى، ظلّت في البيت، في ركن من غرفتها. كانت تيزيكا ترسم علامة الصليب على نفسها وهي تكنس الغرفة التي أراد جيرالدو أن يحتفظ بها مغلقة. في أول مناسبة من أعياد الميلاد، بعد موت جيرالدينا، عندما وضعت تييزيكا الحليب فوق النار فأبى أن يغْلي، ظلّ جامدا في الغلّاية المطلية بالمينا، سليما مع ما علق به من شحوم الأعشاب التي صنعته. لم تحرّك الحرارة ولو ذرة واحدة فيه من مكانها. بل ولم تصعد ولا فقاعة واحدة إلى السطح الذي ظلّ راكدا.

كانت تيزيكا تتحدّث عن تلك الواقعة في المنطقة فيسخر منها الناس.

ـ إذا بقيت تتحدّثين عن مثل هذه الأمور، فستجلبين المرحومة.

ـ ليس ثمة من خطر في ذلك؛ لأن من ماتَ، ماتَ ودُفن.

9

كانت جوليا تسكن في الغرفة الخلفية بالمُمانعة نفسها التي كانت تعيش بها في الميْتم. لم يكن وجهها قطّ يلتصق بالكامل على الوسادة. كان هناك دائما فراغ يفصل بينها وبين الوسط المحيط بها. لم يكن بإمكانها أن تتجوّل في البيت إلا بإذن من ليلى، أمّها بالتبنّي. تأكل في المطبخ وتأوي إلى غرفتها عند نهاية النهار. أيام الأحد، كانت ليلى تأمرها بمساعدة دولْفينا، القيّمة على شؤون البيت منذ سنوات، والتي تنام بدورها في الجزء الخلفي من المنزل.

ـ منذ متى وأنت هنا يا سيّدتي؟

كانت دولفينا تُقطّع الخضر التي تخرجها الطفلة من الثلاجة.

ـ لا أذكر. أم ليلى هي التي جلبتني إلى هنا، وكنت وقتها كبيرة السنّ.

كانت ليلى تستقبل ضيوفا مهمّين جدّا، فلا تسمح لجوليا، ولا لدولفينا، بالدخول إلى القاعة الكبرى. بعد تقديم الأطباق تذهبان للاستماع إلى المذياع. من حين لآخر، كانت دولفينا تسمح لجوليا بالنوم في غرفتها، فتضع لها فراشا قرب الباب.

من بين كلّ الأشغال، كان أكثرها مشقّة طيُّ أغطية

الوسادات والمناديل اليدوية. وكانت القمصان وملابس أخرى أكثر صعوبة، بسبب الطيّات، وجوليا لم تكن ماهرة بيديها حين يتطلّب الأمر السرعة في الإنجاز. بيد أنّ أغطية الوسادات والمناديل كانت تُطوى بسهولة ومتعة؛ لأن القطن الناعم ذا الرائحة الطيّبة كان يعطّر يديها. إلا أنها لم تكن قادرة على ترتيبها؛ لأنها لا تبلغ رفوف الدواليب. كانت تأكل ما يقدّمونه لها، من مرق الدجاج، وكعكة اليانسون. كانت تفضّل المذاقات الترابية، أو على الأقلّ تلك التي لها لون الصدأ. أمّا العسل، مهما اختلفت أزهار مصدره، فكانت تلتهمه كمن يلتهم قطعة خبز، وهي تمضغه.

في الصيف الموالي، أرْكبت ليلى دولفينا على متن باخرة من خطوط الرحلات البحرية الطويلة؛ لأن الخادمة سترافق أخت السيّدة في رحلة إلى قارة أخرى. وأثناء غيابها، جاءت لوديڤيا، طبّاخة تعرف كيف تحضّر ولائم عربية ومشروبات سلطانية. مشروبات بماء الورد تبلّل أقداحا من ذهب وزجاج، وسادات منشورة في القاعة، وموسيقى شرقية. كانت يدا جوليا دائما تتجمّدان في حضور لوديريا. وذات يوم، سقطت مريضة بحمّى خفيفة ومستمرة. ظنّوا أن الأمر يتعلّق بدودة موسم جني المحاصيل، فأمروا بإجراء التحاليل، والتأكّد أيضًا من أن ذلك لا يتعلّق بفقر الدم.

ـ هذه تمثيلية. قالت الطبّاخة.

ـ هذا ليس من عاداتها، لقد اشتاقت إلى القيّمة؛ لأنها تعوّدت على دولفينا. أجابتها ليلى.

ـ وهل ستتأخّر دولفينا كثيرا؟

ـ لن تعود أبدا.

ثم شرحت ليلى كيف أنّ الخادمة قد توفّيت على متن الباخرة؛ لأنها كانت متقدّمة في السنّ ولم تتحمّل كليتاها متاعب السفر. فتخيّلتْ لوديريا الحرارةَ والباخرة تحت الشمس ثم حرّكتْ مِروحتها اليدوية.

ـ بعد أن تخفّ حمّى الطفلة، سأحكي لها بنفسي. قالت ليلى.

10

بلغ نيكو العشرين من عمره. أنطونيو ستة عشر، وجوليا خمسة عشر.

في بطن الوادي كان يقام كل سنة حفل شَتويّ حول الكنيسة الصغيرة. أصبح نيكو شابًّا أشقر قويّ البنية، فحصل على إذن لحضور الحفلات الليلية. كانت الرغبة تدغدغ ملابسه التحتية، ويسرح شعرَه على مهل يوم الحفلة. بجلده الناعم، الأحمر عند الوجنتين، كان نيكو مثل شجرة تفاح.

قِطَعُ عجل كبيرة كانت تُشوَى على الجمر ومشروبات ساخنة يتصاعد بخارها من الأكواب. كان الليل يتقدّم قُبّةً سوداء، وأخشاب الخزانات تصرّ في غرف البيوت، قرية تغلي. خلال الحفل، قد يتشكّل أزواج ربّما يحدّدون المستقبل أو يخفّفون من رغباتهم حتّى يغمر الدمُ الشرايين الدقيقة في كواحلهم.

كانت ماريا تنظر إلى النهر المنبسط يعكس سقف الوادي، الأكثر سوادًا من عينيها. تموّجت قشدة النهر مع الريح الواطئة وانبسطت بسرعة. لم تكن ماريا تسكن بعيدا، بل فقط في الوادي المجاور خلف التلال القريبة من هناك. سمراء، شعر أملس، عينان صغيرتان، ضحكة في فم دقيق. كانت تنظر إلى الشبّان وذقنها نحو الأسفل، نظرات من أعلى إلى أسفل، ومن

الأمام إلى الخلف كمن يستلم رسالة من تحت الباب.

رآها نيكو، فلم ير شيئا آخر لمَا تبقّى من الليل. اقترب من ماريا رجلٌ ثرثار كان ينحني عليها. كان يقترب من أذنها، ويسند إحدى قدمَيه على جذع يمنح توازنا لذراعيه اللتين كانتا تتحركان بطريقة دائرية وبطيئة. ظلّت ماريا جالسة على مقعد خشبي، والشابّ مستمرّ في مغازلتها. ذهب وعاد بشريحة لحم في صحن. شريحة سميكة، مغطّاة بطحين ذرة مبلّل بدم العجل. انحنى وقدّم لها نصف اللحم. رفضت بحركة من رأسها ثم أشاحت عنه بنظرها نحو وجهة أخرى، لتفسح له خصوصية كي يقطع الطريدة بأنيابه.

لم يتكلّما مرة أخرى. كان الشابّ يفتّت حفنة تبغ طري في جفنة يده، فغمرت رائحتها الأجواء من حوله. لفّ التبغ في ورقة ذرة، أشعله ثم نفث الدخان في الهواء.

كان نيكو يشرب البراندي بالقرفة الذي يحرق حلقه.

ـ ألا تتحرّك من هنا يا نيكو؟ اقترب تيموتيُو وهو يسند مرفقًا على منضدة الشرب.

ـ فقط أنظرُ.

ـ من ينظرُ هو الذئب الذي يحوم حول الخم.

ـ ما اسم تلك الفتاة التي تسكن قرب النهر؟

ـ تلك التي مع الرجل؟ إنها من «فالي أبّريسيدا»، على بُعد عشرين كيلومترا من هنا. تحضر كلّ الحفلات.

ـ هل ذلك الرجل هو صديقها؟

ـ ذلك الرجل ليس من هنا. في المرة الماضية، كانت جالسة هناك، مع رجل خلاسي يحوم حولها.

ـ لا بدّ أنها لا تحبّ الرجال الذي فَقَدوا لونهم.

ـ بعينيك الزرقاوين هاتين، عليك أن تفتحهما واسعتين حتى تراك النساء.

نهضت ماريا وسارت في اتجاههما، نحو المشواة. ثم تجاوزتهما دون أن تلاحظهما. استنشق نيكو عطر الليمون في شعرها النظيف، فتمدّد منخارُه، وتباعدت أصابعُ يديه.

وهي تنتظر أن يقطعوا لها لحما مشويّا، غطّت ماريا شعرها المعطّر بغطاء صوفي، يحميها من البرد ومن الدخان الذي قد يتشبّع به.

ـ هل يمكن أن أتحدّث معك؟ قال لها نيكو مجازفا.

ـ تفضّل. قالت مبتسمة دون أن تنظر إليه. وسرعان ما تجهّمت وهي ترى نيكو.

ـ ما اسمكِ؟

ـ ماريا.

ـ أنا، نيكو.

ـ وأنت، ابن مَن تكون؟

ـ تربيتُ على يد جيرالدو، صاحب مزرعة ريّو كْلارو.

ـ وأين هما والدك وأمك؟ قالت ماريا مهتمّة، ثم عادت لتبتسم باحتشام.

ـ قتلتهما صاعقة.

برد اللحمُ في الصحن بينما كانت ماريا تستمع لنيكو، الذي فتح لها صدره وشعر بالراحة لأول مرة. حكى لها ما رآه وما لم يره في الإحدى عشرة سنة الأخيرة. من العناية الأمومية التي تلقّاها على يد تيزيكا، الخادمة العجوز، إلى تبنّي جوليا من طرف أسرة بعيدة.

ـ أصبحت أختك غنية، إذن. قالت مستنتجة.

ـ لم تسمع تيزيكا أيّ أخبار أخرى عن جوليا؛ لأنها صارت عجوزًا ولم تَعُد تذهب إلى المدينة.

من الجهة الأخرى من منضدة المشواة، كان الخلاسي يراقب نيكو.

ـ ذلك البرتغالي الأبله لا بدّ أنه من أقربائها كي يتحدّث

معها بهذا الشكل. قال لنادل المشواة.

ـ جاء مع تيموتييُو، ويشتغل بدوره مع السيّد جيرالدو في المزرعة. لا أظنّ أنه من أقربائها؛ لأن هذا الشابّ لا عائلة له.

مرّ الأسمر بالقرب منهما وودّع ماريا رافعا قبّعته. فردّت عليه بحركة خفيفة من رأسها.

11

كان نيكو ينتزع حبّات البُنّ الناضجة من الأغصان ويُلقي بها في السلّة التبْنيّة. تيموتيُو يراقب خطوط حقل البن. كانت الأيام تمضي بطيئة، آلة مروّضة، والساعات تنزلق في الزمن كأنها طبقة قشدة فوق حلوى. في نيكو، كانت قوة تنتشر شيئا فشيئا، مثل القشدة فوق الكعكة. فتحت ماريا المحابس التي كانت تمنع الصدمة النفسية من أن تنهرق وتجفّ تحت أشعّة الشمس.

لحظتها -أيضًا- أدرك نيكو أنه يعاني من صمم جزئي، عاقبة من عواقب العاصفة الرعدية. كان دائمًا ينتعش تحت ضوء القمر، حتى بعد أن صار كبيرا. من حين لآخر، كانت النار تحرق رقبته فيخرج فجرا، يمشي حتى يبلغ ضفّة النهر الذي يحدّ المزرعة ويستلقي منبطحا على بطنه فوق الأوراق الرطبة. يتشرّبُ ضوء القمر مثل رضيع يشرب حليب أمّه، فيقوّي فقاراته، ليحوّل غصون الكالسيوم إلى جذوع خشب نبيل. كانت تيزيكا تعرف من أين يأتي ذلك الشابّ الذي يدخل إلى البيت في عزّ الفجر.

ـ حان الوقت ليعلم جيرالدو...

كان ينادي على ماريا بذهنه: تشبك الفتاة بأناقة ربلتيْ ساقيها الدقيقتين، تدير جذعها جانبا، فيبرز وجهها الجليل. تبدو كأنّها

من أصول ملكية، يداها تسبحان فوق فستان مطرّز بكويرات صغيرة، تتخلّله نقيْطات فوق ثوب أبيض. حذاء يتناسق مع ياقة ومعاصم من ثوب الكتان. لم تكن غنية، ما دامت تحضر حفلات عمّال المزارع. كانت دقيقة، لؤلؤة في الوادي.

ذات صباح، ظهرت الفتاة ذات السبعة عشر ربيعا عند البوّابة. قدّمت لها تيزيكا قطعة حلوى وفنجان قهوة.

ـ لن يكون نيكو هنا قبل ساعة الغداء. ابقي هنا هادئة حتى لا تُلهيني عمّا أقوم به، سأذهب لأباشر أشغال البيت.

كانت ماريا تنزع الإكليل عن شعرها ثم تعيده، وهي تتساءل إن كان ينبغي لها أن تتوّج نفسها أم لا.

12

في سنّ الحادية عشرة، كان أنطونيو يتميز بقِصَر وسِمنة على مستوى الرِّجلين والذراعين. كان الأطفال الذين يتردّدون على المدرسة نهارا يسخرون منه عندما يجري. وكانت الأخت سيسيل توبّخهم على ذلك حين تفاجئهم وهم يضحكون وراء الستائر. كان ورك الطفل يتّسع أكثر ممّا يمكن أن تتحمّله الساقان. قنطرة فوق دعائم هشّة: كانت الساقان ترسمان شكلهما النهائي، مقوّستين. صموتاً ومشتّت الذهن، كان يساعد في المطبخ أكثر ممّا يقدّم العون في تنظيف الساحة، المهمّة الخاصة بالأطفال. كان يحبّ الفتيات الصغيرات ولم تكن هنّ يخشين طفلا لا تبدو عليه علامات البلوغ. في سنّ الحادية عشرة، كان أطفال آخرون ينظرون برغبة إلى السراويل التحتيّة المنشورة فوق الحبال أو إلى التنورات التي تعبث بها الريح. أنطونيو لم يكن كذلك. كانت غدده نائمة. كان يرتل الصلوات الربانية والسلام المريمي بيدين ناعمتين، ويشدو في الكورال الديني أيام الأحد. ما كان يثيره هي علب مساحيق الراهبتَين، ليس لأنه كان يريد أن يكون امرأة، بل، على العكس من ذلك، كان يرغب في أن تكون له زوجة كمن يملك جلدًا فوق لحمه، بطريقة طبيعية لا تقبل الفراق.

بعد الانتهاء من مهام المطبخ، كان يصعد إلى غرف الراهبتين ويفتح جارورا ثقيلا. واقفا، كان يدسّ وجهه في

سراويلهنّ الداخلية، يداعب عضوه، ويشتمُّ رائحة الصابون من دون عطر. يغمس ذراعيه فيما يشبه الغطس حتى يبلغ خشب القعر، يخرجهما ثم يعاود الكرّة. لم تكن ماري تلج الغرفة إلّا للنوم، وتقضي بقية النهار في مباشرة واجباتها الكنسيّة والتربوية في أجزاء أخرى من المدرسة. كان أول قذف فوق تنّورة دسّها في سرواله التحتي، احتفظ بها في حقيبته فظلّت هناك.

لم يضبطوه قطّ متلبّسا بفعلته. كان أنطونيو يتمرّغ في السراويل التحتية الواسعة، ولم يسبق لأحد أن رأى قزما يفقد جماح نفسه، ونصف جسده داخل جارور.

في الخارج، كانت غيمتان تذبلان وهما ترشّان الأسطح وبلاطات أرضية المدينة. ذهب أنطونيو ليلتقط كرة في بركة ماء في الفناء فتعثّر بسبب ساقيه الملتوتَين. جلس فوق مقعد تحت الرواق الطويل ينتظر أن يتوقّف المطر عن الهطول. ظلّ مبلّلا طيلة الظهيرة. وكان النظام الداخلي يقضي بأن يرتدي منامته الساعة السابعة مساء، فلم ينزع قميصه المبلَّل إلا عند تلك الساعة ليستبدله بلباس داخلي جافّ. ارتأت ماري أنه من الأحسن تفادي الحمّى؛ فقدّمت للصغير نقعًا بالنعنع.

13

منذ أن دَفَن جيرالدينا، لم تطأ قدما جيرالدو مقبرة قطّ. من أجل زيارة مقبرة العائلة، كان يكفي قطع مسافة عشرين مترًا على صهوة الفرس بعد الخروج من بيت السيّد. كان حذاؤه لا يزال يحتفظ بوحَل الدفن، وتلك القبّعة التي لم يضعها بعد ذلك قطّ على رأسه ظلّت هناك في حقيبة مع ملابس والدته. كانت جيرالدينا تتحدّر من الكاتاغْواس، آخر الهنود الذي سكنوا وادي سيرّا مورينا. كانت القبيلة تعيش على ضفاف الأنهار والبحيرات، ويؤمن أهلها بأشباح الموتى الذين يقون منهم أنفسهم بصلوات الدجّالين. علمت أم جيرالدينا عن طريق محارب عجوز أنها كانت تحمل في أحشائها ماء مدنّسا، وأن سليلتها ستكون أنثى أخرى تحمل ماء قديما في بطنها. لقد تعرّضت تلك العشيرة من القبيلة للرمي برماح تحملُ سمًّا قديما من لدن عدوّ ينام نهارا. وأنه لو كانت الجائحة فيهما فقط، فلن تضرب أحدا آخر بعد. كان لا بدّ لعضو من القبيلة أن يكون مصفاة للقرية بكاملها. فكانت جيرالدينا وماؤها المدنَّس هي تضحية سيرّا مورينا وطَمْثُها.

أثناء إحدى الغارات التي تعرّضت لها القرية، ماتت أم جيرالدينا بعيدا من هناك هاربة من الغزاة الأوائل. لم تقضِ الغارة نهائيًّا على القبيلة، مع أنّ العديد من أفرادها لقَوا حتفَهمَ. تربّت جيرالدينا على يد أرملة وجدتها تائهة وسط الغابة، تبحث

عن أمّها. قرّر المعالج أن الأرملة كانت جديرة بالعيش معهم؛ لأنها لم تنقذ واحدة من قبيلة الكاتاغْواس فحسب، بل نجَت -أيضا- من حوت أسودَ كان في الجهة الأخرى من الوادي.

في نهاية غارة ثانية وأخيرة، تمكّن الغزاة من قتل أعيان الكاتاغْواس، معلنين بذلك عن نهاية القبيلة، فتزوّج الأرملةَ أحدُ الغزاة. فَقدَ الرجل يده في المواجهات فقرّر أن يكفّ عن الجري وراء كنز محتمل، إذ أنه عثر على ما ينقصه ويكفيه. استقرّ الرجل، واسمه باسّوس، في أرض الهنود وأرسل من يبحث عن إخوته وأبناء عمه ليبنوا قرية في وادي سيرّا مورينا.

كبرت جيرالدينا وهي صاحبة مزرعة، ثم تزوّجت بعد ذلك أحد أبناء العمّ. كان آلُ باسوس من أغنى العائلات في المنطقة. وكانت جيرالدينا تُكِنّ احتراما للراهبتَين الفرنسيتَين اللتين أسّستا المدرسة في البلدة القريبة، عند سفح جبال سيرّا دا تورْمينْتا. لم تزرهما قطّ في حياتها، ولم تكن تعرف كيف كانا وجهاهما ولا ملابسهما.

بعد موتها، كانت جيرالدينا حرّة لتتجوّل كما يحلو لها. لو كان بالإمكان تكبير حجمها آلاف المرات، لظهر شكلُها للعيان: سلسلة من الذرات، جُزيئات دقيقة تستطيع أن تتحرّك بشيء من الاستقلالية والقدرة على اتخاذ القرار.

وصلت إلى المدرسة وسط قنان ثفل قصب السكر، على متن عربة بائع متجوّل كان يجوب الضيعات والقرى الصغيرة.

بقيت في مطبخ المدرسة حتى بدأت تتعرّف الاتجاهات الأربعة، ثم طافت عبر الفناء حتى بلغت الغرف، كأنّها قُرادة تبحث عن رجلها. في الأخير، دنت من إحدى اليتيمات، فتاة مصابة بداء فقر الدم توفّيت قُبيل وصول أنطونيو.

جيرالدو لا يزال يخشاها حتى اليوم، يخاف من المستنقع الذي كانته أمُّهُ، حيث الأحذية لا تترك أثرا، وحيث الأرض الموحلة تعيقُ الحركة. بحدسها الانفصالي، كان القلق يعتري جيرالدينا وهي تقترب من جيرالدو لتجبره على مغادرة المستنقع الأمومي، مثل حيوان يطرد عنه برغوثا برجله.

14

جرى نيكو؛ لأن تيموتيُو أخبره بالزيارة. كان المطبخ يفوح برائحة الشواء، ودم الدجاج الذي يشبه عجّة بيض في مرق ساخن. سوف يقدّمون الغداء. كانت ماريا ملفوفة في الدخان المتصاعد من اللحم. نيكو لا يتمالك نفسه؛ لأن تلك كانت هي المرة الثانية التي يلتقيان فيها.

ـ هل تريد أن تتعرّف على والدي؟

كان نيكو حميميّا مع ماريا من الوهلة الأولى، منذ أن أسرّ لها بتفاصيل حياته. وهذه الصلة الوثيقة جدا كانت قد أصابت أمل الفتاة، ولم تخطئ رجاء والدها الذي كان بحاجة لمعرفة مصدر السهم. كانت ماريا فتاة عازمة وقد حسمت اختيارها.

ـ حكيت له كلّ شيء، وهو يريد أن يرى عينَيكَ.

كانت قد تحدّثت عن نيكو مع والدها، داريو، الذي أسرع بالأمور وهو يراها قد وقعت صيدا سهلا في الشباك. ولمَّا كان لديه أربع بنات أخريات، فقد كان ملاحظا دقيقا للفواصل والفروقات. إن كان هناك حنان في الساعة السادسة مساء، إن كان الأفق يتجاوز سياج الحديقة، كان يبحث عن سبب السحْر. كانت ماريا قد حدثته عن نيكو بنبرة احتفالية، لم تجد لها بديلا. وهي تتحدث، سمعت نفْسَها تستسلم لاقتران لم يولد بعدُ.

جلس نيكو على المقعد الخشبي يحمل صحنا ساخنا، وكأسا تتصبّب عصير ليمون. جلست ماريا إلى جانبه.

ـ أيتها الصغيرة، سوف أحضر لك صحنا وشراب ليمون لتنتعشي.

أعدت تيزيكا ألمع طقم ومنديلا من الثوب لماريا. فعلى أصلها المتواضع، كانت الفتاة توحي بمعاملة تليق بالأميرات. أصابع طويلة، ووجه فاكهة شهية.

ـ هل أبوك قاسٍ؟

ـ يتظاهر بالقسوة كلّما تجاوز عتبة باب البيت.

لم يكن نيكو يأكل، كان يشرب فقط. أسنانه على غير هدى، عاجزة على الرسو بين لِثَتيْه وعلى سحق الطعام.

ـ متى سنذهبُ؟

ـ سوف نستقلّ حافلة الساعة الخامسة والنصف. قالت ماريا، ثم رتبت حاشية فستانها، مررت يدها على الكمّ المطرّز، وهي تكشف عن شرخ في ثقتها.

بحثت تيزيكا عن نظرات نيكو، كي تزوّده بموافقتها بتعبير حنون دون أن تخفي عنه غيرتها من ذلك الحبّ الرقيق، الذي هو سبب رحيله الحتمي من ذلك البيت. لقد اكتفت تيزيكا بأن تكون ضفّة النهر التي ترعرع فوقها الشابّ، والآن صارت ماريا

هي التي تحرّك أمواجه.

ـ سأذهب معها نلتقط برتقالا لتحضير المربّى. قالت تيزيكا.

عاد نيكو ليقطف حبّات البنّ، وذهبت ماريا لتلتقطَ الفواكه. كان كلاهما على عَجَل، والمشي وسط الحقول يزيد من استعجال لا يعرفان طبيعته. قدمت تيزيكا شالا للفتاة الشابة.

ـ حتى لا تحرق الشمس رأسك، وشعرك الدقيق.

غطّت ماريا رأسها بقطعة الثوب، ثم وضعت فوقه الإكليل كأنه تاج، فكان شريطا زخرفيًّا ناصع البياض. ملأت السلّة، وهي تدوس الأوراق وتكسر الجافّة منها وسط الرطوبة.

ـ كم يبلغ نيكو من العمر؟

ـ لا عمر له؛ لأنّ هذا الشابّ لم يولد ميلادًا طبيعيًّا. قالت تيزيكا وهي تمسح العرق عن وجهها بظهر يدها.

15

جفّفت جوليا شعرها بالمنشفة، شدّته في عقيصة، لفّته بغطاء من ثوب الكتان، ثم نزلت. كانت ليلى في المطبخ، جالسة قُرب المائدة. تضع مساحيق على وجهها، ترتدي لباسا حريريًّا فضفاضا، وتتطيّب بعطر ليْليّ له عبق الخشب.

ـ اجلسي لحظة، أريد أن أزوّدك ببعض أخبار دولفينا.

ـ متى ستعود؟

ـ كانت الباخرة مزدحمة بالناس، وهي تعاني من بعض مشكلات الضغط الدموي، وألمت بها أزمة مرض السكري. لم تقو كلتاها على التحمّل، فلم تصمد كثيرا.

ـ هل ماتت؟

برزت كرة كاملة في ركن العين، ثم سرعان ما انفجر غشاؤها وسط الوجه.

ـ اشتغلي، فالعمل هو أحسن وسيلة للتغلّب على الألم. بعد الغداء، بإمكانك أن تستريحي.

ـ والآن؟

ـ لديك لوديڤيا، إنها طيّبة.

خرجت ليلى فدخلت لوديڤيا، كما لو أنهما تدرّبتا على

المشهد. أخذت لوديڤيا بعض الفواكه، وضعتها في سلة وراحت تقطّعها قطعا متفاوتة الأحجام لتُحضّر عقبة مغطّاة بالقشدة.

ـ سوف تحبينني في نهاية الأمر. لأننا مضطرون لنحبّ ما لدينا.

تكلّفت جوليا بتحضير التفاح. كانت تقطّعه دون قوة، والشفرة تنزلق فوق قشرة الفاكهة اللامعة، تكاد تنزل على شرايين معصمها. فبعد الفرنسيتين، كانت دولفينا هي المرأة الوحيدة التي اقتفت جوليا خطواتها وهي تظنّ أن كلّ يوم سيكون مثل سابقه. حياة مشتركة تصبو إلى الأمان، والثبات الذي يدعم ساقين تحت جذع تنقصه الأملاح المعدنية، وأعصاب هشّة. في غياب دولفينا، عادت ساقاها لتترنّحا من جديد. كانت جوليا تبحث عن سُقم الإغماء، الذي لا يأتي.

ـ انظري إليّ، يا جوليا.

ظلّت جوليا جامدة.

ـ يوم الأحد سآخذك إلى الكنيسة حتى تتّضح الأفكار في ذهنك، أنا لا أعرف كيف أتحدّث عن بعض الأمور، لكن الراهب يعرف كيف يقوم بذلك.

التقى العرقُ بدمعتين عند العنق، صورة العذراء قرب الزجاج، سيدة تحمل رضيعا بين ذراعيها، ترتدي ملابس واقية

من البرد، تغطّي رأسها. وفي الرسم الآخر، القديس يهوذا، له نظرات وديعة مثل ساعي بريد. فكّرت جوليا أنه بوساطة تلك القطعتين الورقيتين، يمكن لفُّ بطاطا حلوة.

الطفولة التي قضتها مع الراهبتين جعلتها مستعدّة، تجمع ساقيها عند الجلوس، تتبع عادات مهذّبة عندما تجلس إلى مائدة الأكل، وتتحدّث بصوت خفيض. نحتٌ مرمري في حديقة بها نافورة ينبجسُ ماؤها منضبطا. ليلى، بدورها، كانت تجرّب عدة أشكال من التشذيب على أغصان جوليا حتى ترى أيَّ طريقة تعطي أحسن الثمار. كانت الطفلة تدمى كلما قُطّعت الفاكهة، لكن جرحها يندمل بالصبر، فيجلبُ اليَخْضورُ من جديد إلى سطح ذهنها أفكارا تواجه بها العالم.

16

كانت سيسيل توقّع بعض الوثائق. أخذت ماري قرص دواء.

ـ علينا أن نتحدث مع أنطونيو.

ـ هذا سابق لأوانه. قالت ماري وهي تعبّ كأس ماء.

ـ إنه منبوذ من الكبار كما الصغار، وأسوأ ما في الأمر الزّوّار. قزم. يعرف أنه مختلف؛ علينا فقط أن نخبره باسم المرض.

ـ إنه ليس مرضا، بل قدرا مثل أي قدر آخر -قالت ماري وهي تنظر إن كان ثمّة غبار في النافذة- سأتكلّف بذلك.

كان أنطونيو في غرفة ماري، وجهه داخل الجارور، أنفه في التنورات، ويداه في الجوارب الحريرية. عطر راهبة فرنسية. ارتمت جيرالدينا على عنق أنطونيو، ثم قرصته من قفاه لتنبّهه. مرت ماري أمام عتبة الباب دون أن تدخل. ثم تابعت سيرها عبر الممر، حيث الدّرجُ اللولبي يؤدي إلى الفناء. شعر برعشات خفيفة على قفاه، فنزل أنطونيو من فوق المقعد، وأغلق الجارور، ثم نظر إلى جانبيه ونزل عبر الدّرج نفسه الذي أخذته ماري. رأى أنها كانت تسأل أحد الأطفال الذي كان ينفي بحركة من رأسه. وجرى الأمر نفسه مع ثلاثة أطفال آخرين. كان هناك بابان في قاعة الطعام. توجّه إليها دون أن

ينظر إلى داخل الساحة، متسترا خلف الحالة السابقة للأشياء. وخرج من القاعة بالسرعة نفسها التي دخل بها، متظاهرًا بأنه كان دائما هناك وأنه خرج فقط ليشتمَّ شيئا من الهواء. وجد نفسه وجهًا لوجه أمام ماري.

ـ أنطونيو، تعال معي.

ـ نعم، سيّدتي. وشعر أنها تقرصُ جهة من وجهه.

صعد الدرج من جديد، الممر نفسه، ثم وصل، أخيرًا، إلى القاعة. لم تكن سيسيل هناك. جلست ماري خلف الطاولة وأخرجت وثائق من أحد الجوارير.

ـ أتذْكرُ الفحوصات التي أجريناها؟

لم يجبها أنطونيو، وظلّ يحدّق في اليدين اللتين تخرجان من الظرف الداكن ورقة بيضاء، رأي الطبيب.

ـ ستظلّ دائما على هذه القامة حتى تصير عجوزا. إنه قدر لا دواء له. الجنة من نصيب الأطفال الصغار: أريدك أن تفهم، يا ولدي، أن قامتك ربما تكون علامة على طفولة لن تنتهي أبدا.

ـ ومتى سوف أستطيع أن أكبر؟ قال أنطونيو بشيء من الارتياح؛ لأن الكبر كان أقلّ خطورة من مباغتته غارقا في الخزانة.

ـ لقد كَبرْتَ كل ما تستطيع. والعائلات التي تأتي إلى هنا

بحثا عن أبناء وبنات تريد أن يكبر صغارها. وأنت ستكون صغيرنا نحن، هنا بالضبط.

شكرها أنطونيو؛ لأن الراهبات كنّ بصدد تبنّيه.

17

صافحَ نيكو السيد داريو، والدُ ماريا. كان البيتُ متواضعًا، تفوح نظافتُه من ألق الستائر ونضارة السجادات.

ـ أخبرتني ماريا أنه لا أسرة لك.

ـ لدي أسرة، لكنّهم ماتوا -أجاب نيكو وهو ينظر إلى يدي داريو المشبوكتَين والخشنتَين. ثم ران الصمت. إذن، صحيح أن هذا الشاب يتيم، وهو ما يتأكّد من هذا الحزن الذي أذْبل جسده. توجّهت ماريا إلى الغرفة حيث كانت أخواتها الصغيرات، اللواتي يلزمن الصمت من أجل متابعة ما يجري من حديث.

ـ هناك عائلة في العاصمة تبنّتْ جوليا، أما أنطونيو فيوجد في الميْتم.

ـ هل تريد ماريا زوجة؟

كان داريو على وشك أن يسلّمها له في تلك اللحظة. تشكّل سرب من الأسماك البيضاء في محْبسيْ وجه نيكو، فانعكس داريو على بريق حراشيفها.

خبّأت ماريا كفَّي يدَيها بين فخذَيها، فعبر وميضٌ ليليكي الملاءات المنشورة فوق الحبل، التفّ حول إطار النافذة، وبلغ جفنيها فتزيّنت بالشمس.

ـ نعم، أريدها لي زوجة.

ـ لقد تعوّدت ماريا على حياة متواضعة، لكنّها تحبّ الأشياء، وكلّ ما تحتاجه في المطبخ، وتحبّ أن يكون الحطب دائما مرتّبًا في فناء البيت.

كان نيكو متردّدا بين السعادة والسراب، كما لو أنه، في يوم من الأيام، تلقّى ذات ظهيرة برقية تخبره بوصول أحد ما قادم من بعيد. كانت ماريا في طريقها إليه، ووالدها يسلّمها إليه دون أن يطلب منه مقابلا.

ـ يمكنك أن تأتي أيام السبت لتغازل ماريا. سوف نضبط الأمور الأخرى لاحقا.

اصطحبت ماريا نيكو إلى البوّابة. زواج حُدّد قبل أن يتبادلا أول قبلة، بل ولا أدنى احتكاك بين الأكتاف. وضع نيكو يده على خصر ماريا فشعر بسائل منوي ساخن ينفجر داخل سرواله. تأوّهت الفتاة كما لو أن السائل المنبجس تدفق من جسدها. فزع من الأمر، فرفع عنها ذارعيه وودّعها.

بعد مدة قليلة، علم جيرالدو بزواجهما.

ـ وأين ستسكن؟

ـ في البيت الذي ولدتُ فيه.

ـ لقد أخذتُ فتاة لتعيش هناك. أنت في ملكي مثل ذلك

البيت. أي مال لديك كي تؤسّس أسرة؟ متى أعطيتُك مالا؟

ـ لدي مالُ والدي، كان هناك داخل الفراش. وجدتُه حين ذهبتُ أبحث عن جوليا.

ـ لن أطرد تلك الفتاة وألقي بها إلى الشارع بسبب نزوة زواجك هذه.

حين وضعت تيزيكا المملحة فوق طاولة الغداء، هدآ، ووضعا الصحنين فوق ركبتيهما. وتحت الكراسي كانت الكلاب تستجدي عظام الدجاج. شعرت تيزيكا بيدها ترتعش، فخبّأتها في جيب المريلة. إنه ارتعاش السنّ التي كانت تتقدّم بسرعة مثل قرية نملة في طور البناء، باستمرار وإلحاح.

ـ لم تحدّثني قطّ عن ذلك المال. قال جيرالدو.

ـ كنت أنوي أن أحتفظ به ذكرى، ولا أنفقه. تيزيكا كانت ترتقُ ملابسي، وأنت آويْتني وأطْعمتني. وأنا مستمرّ في العمل معك، إن شئت.

ـ وهل يجب أن أدفع أجرتَك؟

انتهى نيكو من تناول طعامه، ووضعت تيزيكا الماء ليغلي.

ـ هيا يا تيزيكا، ألا تقولين شيئا؟ ألست منزعجة من نيكو؟ هل أنت متعلّقة به؟ ألا ترين أنه يذهب إلى حال سبيله؟

صبّت تيزيكا القهوة في الفناجين المزخرفة الخضراء، ثم

أذابت السكر الذي كان في قعر الملعقة.

ـ يمكن لنيكو أن يأخذني معه. همهمت بصوت خفيض. فابتسم نيكو موافقا.

ـ إنك تمزحين! سوف تشتغلين هنا إلى أن تحين ساعتك.

ظلّ نيكو صامتا، ينتظر تفكير جيرالدو.

ـ هذا ما سنقوم به: أنت تعطيني المال وأنا أتدبّر أين أضع الفتاة.

اتفقا، فقدّم فرديريكو[1] مال والده مقابل بيت والده. ولشهور طويلة ظلّ نيكو وماريا يلتقيان عند بوابة بيت داريو. كانت تيزيكا تطرّز جهاز العروس، وداريو يسمّن الخنزير لحفل الزفاف. نظّم تيموتييُو جهدًا مشتركًا بمساعدة عدّة عمّال آخرين، وسرعان ما أصبح البيت الذي تركته عشيقة جيرالدو جاهزا في مدة شهر. إنييدو، الذي يحرس البيت، كان هو آخر من خرج منه. كان بيت نيكو وماريا يتوفّر على خمّ، وأرضية من الأسمنت الأصفر تتناسق مع المناديل ذات الخطوط، وبستان استيقظ بعد سُبات تحت الأرض.

ـ سوف أزورك كلّ أسبوع، لآخذ جبنًا طريًّا وثومًا.

كانت إمكانية الزيارة تعطي تزيكا عزاءً. وحُدّد موعد

---

(1) نيكو هو صيغة التصغير لاسم فريديركو. (المترجم)

الزفاف يوم السبت صباحا، وستقام مأدبة الأكل في فناء البيت القديم. كان أمام نيكو خمسة عشر يومًا ليبحث عن أخته وأخيه ليحضرا الحفل، ويراهما من جديد هناك بالضبط، في وادي سيرّا مورينا.

18

نقلت لوديريا الرسالة، وهي مكالمة هاتفية سريعة من سيسل.

ـ أخوك سيتزوّج بعد عشرة أيام. اتصلت بي الأخت لتخبرني.

مكتبة
t.me/soramnqraa

جلستْ جوليا.

ـ لهُ عينا أمّي.

حتى موتُ دولفينا لم يؤثّر فيها كلّ ذلك التأثير. استرجعت كلّ شيء: أنطونيو، عرق الأمّ، رائحة والدها المُرة والحلوة في آن، البيت، الفناء، الرّعد. خرجتْ تجري نحو الغرفة الخلفية، والحمّى تركض معها، كأنها فرس جامح. كانت الذكرى ستارًا، والقلق أريكة، وأحاسيس قوية أخرى يمكن أن تؤثّث بها بيتًا كاملًا.

ـ اتركيها في الغرفة، يا لوديريا. قالت ليلى آمرة.

ـ يمكنني أن أتكفّل بكلّ شيء وحدي، اسمحي لها بحضور الزفاف.

ـ كلا، من الممكن ألا تعود. سوف أبعث هدية باسمها إلى العروسين.

كانت جوليا تهذي فوق السرير على مرتبة منقوشة بدون ملاءة، بينما الأشكال الدائرية لجسدها تلتصق مستقيمة بالخطوط المرسومة على القماش. حرّكتها لوديريا من كتفَيها.

ـ ليلى تريد أن تتحدّث معك... إنك تغلين من الحمّى، سوف أقدّم لك حمّامًا باردًا.

غيّرت ملابسها واستعدّت كي لا تسمعَ أيَّ شيء جديد.

قالت ليلى:

ـ ابني فؤاد سوف يتزوّج في الشهور القادمة. كما ترين، حفلات الزفاف شيء مألوف وعادي في الأوساط العائلية. لا أستطيع أن أستغني عنك في مثل هذه المناسبات. وكما ترين، دائما هناك فرص لحضور حفلات الزفاف. وستكون لديك فرصة كهذه هنا. قد يكون من الخطأ عصيان أوامري، أنا التي عاملتك دائمًا في هذا البيت بكلّ لياقة وأدب.

ظلّت جوليا صامتة، ثم ذهبت لتغسل الأواني المتّسخة بعد وجبة الغداء لأنها قريبًا ينبغي أن تقدّم وجبة العشاء.

ـ يوم الأحد سوف نذهب لحضور زفاف في الكنيسة. يجب أن نكون هناك ساعة القدّاس حتّى نصلّي وننتظر دخول العروس. لن يطردنا من هناك أحد. كانت تقول لها لوديريا لتواسيها. وبعد ذلك نأكل بوظة في محلّ البقالة، القريب من هنا الذي لا يغلق إلا متأخّرًا.

وفي الساعة السادسة مساء كانتا معًا هناك فوق دكّة الكنيسة، قرب الباب. ملابسهما تشي بأنّهما لم تكونا من المدعوّات، فاتخذتا مكانًا بعيدًا من المذبح، بيد أنهما اندمجتا في الأجواء ولا يمكن لأيّ راهب أن يطردَهما من هناك. جثيتا على ركبتَيهما. بعد أن تناولت القربان، طلبت جوليا معبرا، ثقبا في الفضاء تمرّ منه كي تلتقي بنيكو والمرأة التي اختارها زوجة له، وبأنطونيو ووادي سيرّا مورينا.

كانت لوديريا ترقب من وراء أصابعها الملتحمة في صلاة شكلية. نهض الضيوف، وتعالت من آلة الأرغن نغمات كلاسيكية ثم دخلت العروس، يقودها والدها. كانت ترتدي فستانا مطرّزا يتجرجر ذيله، وتنتعل حذاء مصقولا يلمع؛ كما يلمع شعر العرّابات وتتلألأ خواتم الراهب. بعد مراسيم الزواج، عاد الرجل والمرأة أدراجهما على نغمات آلة الأرغن نفسها. كان الراهب قد اشترط تعاونهما في المرض كما في العافية. نهضت جوليا ولوديريا ثم خرجتا دون أن تثيرا انتباه أحد. وابلٌ من الرّز، وعربة مليئة بالشرائط المشدودة خلفها. ثم توجهتا معا إلى مخزن البقالة.

ـ سلام، ميسْياس. قالت لوديريا مبتسمة.

صاحب البقالة، الذي لم يسبق له أن رأى جوليا مع لوديريا، تذكّر أنه رأى الفتاة مرة تمرُّ بخطى حثيثة قبالة محلّه.

ـ هذه هي جوليا، التي تبنّتْها السيّدة ليلى.

ـ أما زلتما في الشارع في هذه الساعة المتأخّرة؟

ـ إنها ليست الساعة الثامنة بعدُ يا رجل؟

اختارت جوليا بوظة بالأناناس، ولوديريا بوظة بالجوز الهندي.

ـ سوف تدفعان غدًا.

في اليوم التالي، أرسلتْ لوديريا جوليا لتؤدّي ثمن البوظتَين، عن قصد، في محاولة للرفع من معنوياتها. كان بإمكانها أن تؤدي الثمن شخصيا ليلة البارحة، لكنها تركت الطبيعة تنجز عملها لأنّ الصغيرة لا تخرج إلا لحضور القداس. خرجت جوليا خلسةً دون أن تراها ليلى.

ـ ألا تريدن بوظة أخرى؟ خذيها، أنا أهديها إليك، حتى تصبحي زبونة لي. قال ميسْياس وهو يبتسم بحماسة.

ـ هل يمكن أن أريد شيئا آخر؟

ـ نعم، إن حدّثْتني عن نفسك. والوقت مناسب الآن لأن المحل فارغ لا حركة فيه.

19

في سن السادسة عشرة لم يعد أنطونيو ينغمس داخل خزانات الراهبتَين، لكنه أصبح يختلس جوارب الفتيات. كان مهووسا بالروائح التي يجدها جميعًا ممتعة، سواء كانت روائح لحم نتن أو عطر مربّى ما زال في طور الطهي. كان يحبّ الملعقة والوعاء، ويهوى كشط قعر القدور، وتذوُّق الحلويات اللذيذة أو قطع الأتْرُجّة الرقيقة. كان يتلطّخ بكل ما يُنجزُ في المطبخ، حتى بالماء الذي يغسلون به الأطباق. وفي المجلى، كان يضع يده ليقطع مجرى الصنبور. كان هو ابن الميْتم. المدرسة كلّها ملكه، بخزاناتها، وغرفها، وكل من فيها من يتامى وراهبات.

أرادت تيزيكا بإلحاح أن ترافق نيكو ليذهبا ويبحثا عن أنطونيو.

ـ نيكو! قالت ماري. هيّا عانقني، يا بُنيّ. لو بقيت معنا لربّيناك بكل حبّ.

ـ إننا لم نبخل عليه بالحبّ. ردّت عليها تيزيكا.

ـ هذا هو حال ماري. إنها متأثّرة. قالت سيسيل متحجّجة.

ـ أين هو أنطونيو؟ قال نيكو بقلق.

ـ أرسلتُ مَن يناديه. أجابته ماري.

توجّه نيكو إلى النافذة لينظر إلى الساحة. كانت أول مرة

يرى فيها داخل الميْتم الذي كان معقّما مثل عيادة طبيب. كانت النظافة تخفّف من أشعّة الشمس التي تتسلّل إلى داخل القاعات. أصبحت الساحة تضيق بشيطنة الأطفال، التي تصير، بعد فترة الاستراحة، جلبة يتردّد صداها بين الأسوار.

كانت جيرالدينا، بدورها، تقفز فوق حقيبة أنطونيو. تعرف أنها لن تعود أبدا عند الفرنسيتين، إلى المحار، والكعك في الأطباق.

ـ متى ستعيدونه مرة أخرى؟ سألت ماري.

ـ إنه لم يبلغ سنّ الرشد بعدُ، لكنه يستطيع أن يعيش معي. سنعود إلى بيت الأسرة، البيت الذي ولدنا فيه جميعا. قال نيكو وهو يشعر أن الراهبة قد لا تسمح بذلك.

نظرت سيسيل إلى ماري وهي تنتظر منها أن تقول شيئا ما. ولمَّا لم تقل شيئا، فقد شرحت بنفسها:

ـ أنطونيو بحاجة إلى عناية خاصة؛ لأنه يعاني من مشكل.

دخل أنطونيو إلى القاعة والحقيبة ترتطم بضلوعه، قرب الرئة. سقطت الحقيبة. حين تعرّفَ على نيكو واقفًا في ركن من القاعة، جرى وارتمى عند رجلي أخيه.

ـ إنه قزم. قالت سيسيل.

انحنى نيكو بتثاقل، ومرّر يديه على شعر أنطونيو، فتبادلا

شحنات كهربائية في تلك اللّمسة.

ـ لن أخلق مشكلات لأنطونيو؛ لأن لديه منها ما يكفي. إذا كان يرغب في ذلك، فسنسمح له بالذهاب معك، لكن إذا حدث له أيّ سوء، فإنك تتحمّل كامل المسؤولية يا نيكو.

نفد صبر تيزيكا.

ـ هيّا بنا أنتما! هيّا، سوف تمطر، والغبار أحسن من الوحل.

ـ المنزل جاهز يا أنطونيو. طلبتُ من جوليا أن تأتي أيضًا. الحفل سيقام بعد خمسة أيام. في انتظار ذلك، سنبقى في مزرعة ريّو كْلارو.

ـ أتظنّ أنّ زوجتك ستتركني لأعيش معكم؟ أنا لا أعرف القيام بأشغال المزرعة.

ـ ماريا متلهّفة لمعرفتك.

ـ هيّا بنا الآن! قالت تيزيكا وقد فقدت صبرها، بينما الراهبتان تنظران إليها في حَيرة وغضب واضحين.

ودّع نيكو الراهبتَين، ولوّحت لهما تيزيكا بإشارة وداع من يدها، بينما تبعهما أنطونيو في الخلف ينظر إلى ماري وسيسيل وهما تصيران صغيرتَين.

20

بعد عدة ساعات تحت الغبار، اجتازت العربة بوّابة مزرعة ريّو كْلارو. التوت جيرالدينا مثل حيّة حول كاحل أنطونيو، وزحفت بتثاقل فوق الأرض. لم تكن قادرة على العودة إلى ذلك البيت، إلى ابنها، إلى دم أسلافها. التفّتْ حول قدم شجرة جوّافة من دون ثمار، لن تبرحها إلا بعد خمسة أيام، في العربة نفسها التي جلبتها والتي ستأخذ أنطونيو إلى بيت نيكو.

ـ تيزيكا، افتحي السرير الذي يُطوى هناك في غرفة نيكو، أو خذي المهد القديم هناك في الخارج، فلا بدَّ أنه يتّسع للطفل. ابتسم لجيرالدو.

لم يدرك أنطونيو استفزازه، لكنّه علم بذلك من خلال ردّ فعل نيكو.

ـ خذي الفراش فقط؛ لأنه ليس بحاجة للمهد.

عاد جيرالدو إلى الرواق ليدخّن سيجارة بعد ما شربه من خمر. عادت تيزيكا تحمل الفراش المزيّن بزخارف طفولية. ثم هيّأت العشّ قرب سرير نيكو.

ـ سوف ألتقي بصديقاتي في الكنيسة، فاليوم تقام الصلاة التُّساعيّة. هناك شمع في الدُّرْج، فلا داعي للخوف يا أنطونيو. إن تأخّرتُ، فهناك خبز وجبن في خزانة المؤونة.

ظلا معًا صامتَين في الغرفة. ومع حلول الليل، كسّر نيكو الصمت كمن يقطع جبنًا صُلبًا.

ـ هل تشعر بشيء ما؟ هل يؤلمك؟

ـ أنا متعوّد على الأمر.

فرح نيكو لكلّ تلك العفوية.

ـ أترك كلّ أغراضي هنا في الأسفل، حتى لا أزعج الآخرين.

ـ سأُريك ما تعلّمتُه مع تيموتييُو.

ـ بالنسبة لأشغال البيت أنا جيّد؛ لأنه لا أحد يراني.

كانت ماريا تعرف أن أنطونيو رفقة نيكو. حضور شخص آخر لا يزعجها، لكن كيف يكون ردّ فعل جوليا؟ الأخت لن تقبل بالخضوع لها. قد تتقرّب من أخيها نيكو، وتحتمي بعطفه. لكن وحدها ماريا لها الحقّ في أن تبعث الدفء في عطفه.

ـ لا بدَّ أن جوليا قد صارت شابّة اليوم. قال نيكو وهو يهذي. إن كانت تشبه أمّنا، فقد تجد هنا زوجًا وتمكث.

ـ لديها أمّ أخرى.

ـ أتظنّ أنها ستأتي؟

طرق جيرالدو الباب.

ـ نيكو؟ تعال هنا، يجب أن أتحدّث معك.

نهض نيكو، أخذ الشمعة وذهب إلى القاعة.

ـ لقد خرج إنييْدو للتوّ. أرسل في طلب بندقية. دخل ذئبٌ إلى خُمّ الدجاج فلم يترك من الطير إلا ما كان نائما.

ـ سأذهب إلى هناك.

ـ لن تذهب إلى أيّ مكان. أنت لا تعرف كيف تستعمل السلاح. دعوتُك لشيء آخر. أخوك سوف يشتغل هنا رفقة تيزيكا. لو خارت قوى هذه العجوز، فإن البيت سينهار.

سمع أنطونيو من الرواق ما دار بينهما، فتحسّس الجدار وسط الظلام حتى أصبح صوت أخيه واضحًا تمامًا.

ـ إنه لا يصلح لأيّ شيء، سيّد جيرالدو. هل ستدفعه ليقوم بالطبخ بينما تطرّز تيزيكا المناديل؟

جيرالدينا، عند قدم الشجرة المثمرة، كانت تتفاعل مع ما يدور في القاعة من خلال ذبذبات مضيفتها الشجرة. لو أنّ أنطونيو بقي في تلك الأراضي، لكان نهاية خصوبة التراب، الذي قد يصيرُ غبارًا تحت البيت حيث دفنت العظام. فلا أحد يتغوّط في المكان الذي يأكل فيه. وقد يواجه جيرالدو خطر الإفلاس.

حين عاد إلى الغرفة، وجد نيكو أنطونيو يغطّي نفسه بملاءة. ظنّ أنطونيو أن شقيقه قد حدّد مع جيرالدو مصيره نهائيًّا في المزرعة، بَيدَ أن نيكو تمنّى له ليلة سعيدة وألقى عليه ملاءة أخرى دافئة. هنا، ما قد يقرّره نيكو سيكون هو الصواب، حتى لو قرّر أن يتركه بعيدًا كلّما دعت الضرورة لذلك.

21

طوى ميسْياس ثلاث أوراق نقدية ووضعها في علبة حلويات. دسّت جوليا العلبة في حقيبتها، وكانت قد استيقظت قبل لوديريا وقبل أيّ أحد آخر في البيت. فستانان، سروالان تحتيان، وأحمر شفاه. كلّ ذلك داخل حقيبة واسعة علّقتها فوق كتفها.

ـ سوف أخبر لوديريا بالأمر غدا، ممّا يترك لك وقتًا كي تلتحقي بأخيك هناك. لكن عليك أن تعودي، وإلا، فسأتّصل بالشرطة شخصيًّا.

عرض ميسْياس دعمًا، حراسة ومؤونة حتى تتمكّن جوليا من أن تلتقي مرة أخرى بأسرتها.

ـ الشوق صعب، وأنا أشعر بشوق كبير. أنت شابّة، وحين تعودين أريدك أن تغرمي بي.

احمرّتْ جوليا؛ لأن ميسْياس كان يناهز الأربعين، افترق عن زوجته وهو أب لطفلَين لم يرهما منذ خمسة عشر عامًا تقريبًا.

ـ سيد ميسْياس، أنا لا أريد أن أكون حبيبتك. أقبل مساعدتك لأنّ أخي بحاجة إليّ، ويبدو أنك، يا سيّدي، تفهم معنى الفراق.

ـ سوف نتحدّث في الأمر عندما تعودين.

أدارت له جوليا ظهرها، خرجَت من عتمة المحلّ نحو ضوء الإسفلت، ثم عبرت الشارع واختفت. كان المال كافيا لتذكرتَي الذهاب والإياب عبر الحافلة، ورحلتَين في سيّارة الأجرة، ومشروبًا يصاحب السندويش باللحم الذي حضّره ميسْياس.

ـ ما وجهتُك؟

ـ محطة الحافلات.

أخذت سُلّمًا متحرّكًا لأول مرة في حياتها، فتمسّكت بالدرابزين وراقبت المسار بحذر خائفة أن يبتلعها. لاحظت أن الآخرين ينزلون من السلّم دون أن يغيّروا كثيرًا مشيتهم. لكن، عندما نزل الدرج المعدني عند مستوى طابق الوصول، قفزت لتحمي نفسها من تلك الآلة.

كانت الشبابيك مصطفّة. راحت تبحث عن الوجهات الممكنة. جنوب، شمال، شرق، غرب، وسط. كانت أجواء الانطلاقة والوصول هي الأجواء نفسها، ارتياح للخروج من منطقة العبور. الطريق فراغ، لا هو هنا ولا هو هنالك. تأكّدت من الوجهات فلم تعرف أحسنها، ولا أيّ وجهة هي الأقرب إلى سيرّا مورينا. جنوبا، بكل تأكيد، يكفي أن تسأل مستخدمي الشركة.

ـ من فضلك، هل يمكن أن تعتني برضيعي ريثما أذهب إلى المراحيض؟ لن أتأخّر كثيرًا. قالت لها امرأة لطيفة، ترتدي

ملابس أنيقة، وتحمل حقيبة جلدية. كان الرضيع بدينا، رأسه ملفوف في غطاء صوفي، وينتعل خُفًّا من ثوب غليظ.

ـ حسنًا، لكن لا تتأخّري، عليّ أن أذهب.

شكرتها المرأة ودخلت إلى الحمام. ظلّت جوليا واقفة عند الباب تحمل الرضيع، الذي كانت يداه مقمّطتَين مع جسده للحدّ من حركاته. ظنت جوليا أن الأمّ على حقّ وهي تنشغل بأمان طفلها. إذ بتحديد مقادير اتصاله بالعالم، سيتعلّقُ الرضيع بالحياة شيئًا فشيئًا.

كان الرّضيع يجترّ لعابه وهو يحرّك ذقنه نحو الخلف ونحو الأمام. يئنّ ببعض الأصوات. نقلته جوليا من ذراع إلى آخر وأرخت قليلًا الملاءة؛ لأنه كان مضطربًا. غيّرت وقفتها، فاستدارت لتتكئ على الحائط بالورك الآخر. مرت ثلاثون دقيقة، أربعون، خمسون، ستون.

ـ هل معك ساعة، يا سيّدي؟

ـ العاشرة تقريبًا.

تقدّمت حتّى بلغت مزلاج الحمام. كانت هناك امرأة ترتدي مريلة وتنسج صوفًا خلف طاولة فوقها علبة من قطع ورق الحمام المطوية. لولوج الحمام واستعمال قطعة ورق كان لا بدَّ من دفع ثمن قهوة.

ـ هل ستدخلين إلى الحمام أم لا؟ سألتها المرأة دون أن

تتوقّف عن البحث عن الإبرة والخيط.

ـ أنتظر امرأة ترتدي لباسًا بنفسجيا دخلت الحمّام.

ـ إن كانت قد دخلت، فإنها لم تغادر يا ابنتي.

جلست جوليا فوق مقعد من مقاعد الانتظار، على بعد خطوات من باب الحمّام. ومن هناك تستطيع أن تراقب خروج المرأة بكل أمان. بدأت تشعر بتنْميل في ذراعها. وفوق رأسها بالضبط، كانت هناك ساعة تشير إلى منتصف النهار إلا خمس عشرة دقيقة.

ـ ألم تخرج بعدُ؟ سوف أدخل لأرى ما في الأمر. قالت المرأة ودخلت تاركة خلفها كُرة الخيط والثوب الذي كانت تنسجه.

كانت كلّ الحمّامات مشغولة فتمدّد الصفّ. لا بدّ أن المرأة في واحد من تلك الحمّامات. اغتنمت عاملة النظافة الفرصة لتغسل يديها وترى إن ظهر أثناء تلك الفترة شخص يرتدي لباسا بنفسجيّا. نشّفت يديها بالورق ورمت في القمامة قنينة شراب فارغة كانت تحتفظ بها في جيب مريلتها. وبما أنها لم تسمع صوت الزجاج في قعر السلة، نظرت لتتأكد إن كانت قد رمت بشكل صحيح. وتحت القنينة الفارغة، اكتشفت كومة بنفسجية من الحرير.

ـ هل هذا هو اللباس الذي كانت ترتديه؟ سألتْ جوليا.

22

علّقت ماريا معطفها على نافذة المطبخ وذهبت لتُعانق تيزيكا. كان أنطونيو ونيكو في الغرفة يملآن كيسًا من الثوب بأدوات منزلية صغيرة. انتعل أنطونيو خُفّين وذهب إلى المطبخ. رأى ظلّ ماريا منعكسًا ضدّ الضوء فنزع قبّعته واقترب منها.

ـ هل أنت ماريا؟ أنا أنطونيو.

لم تمد ماريا يدها إليه ولم تردّ على تحيّته.

ـ يبدو كأنه ليس في سنّ السادسة عشرة. قالت تيزيكا.

باغت نيكو أنطونيو وهو يحدق في وجه ماريا، ثم نزل بنظراته بعد ذلك عبر جسدها حتى قدميها.

ـ خُذْ. قالت تيزيكا وهي تضع فنجان قهوة بين يدي القزم.

ـ ماريا، هذا هو أنطونيو. قال نيكو وقد شعر بالإهانة من صمتها.

ـ سنذهب ما إن يُنهي قهوته. أجابته ماريا.

قدّمت تيزيكا القهوة للزوجين، فشرب ثلاثتهم دون أن ينطقوا ببنت شفة. أعاد أنطونيو الفنجان وكان أول من غادر البيت. وبينما كان الصغير يفتح البوّابة، غادرت جيرالدينا

شجرة الجوّافة وراحت ترفرف بالقرب من أنطونيو.

ذهبوا مشيًا على الأقدام. لم يحرّر جيرالدو نيكو من العمل باكرًا، وقد صارت السماء بنفسجية. سوف يمشون مدة ساعة تحت شمس فاترة. كان نعل ماريا ثقيلا من الوحل الذي يتراكم مع كلّ خطوة. كانت نقط وحل بنّية وغليظة تلطّخ حاشية الفستان. ومع توالي الخطوات كانت كويرات الوحل المتربة تصل إلى الحزام وتزداد المسافة الفاصلة بينها بشكل متناسق. فوصلت إلى باب المزرعة بفستان ناصع مطرّز بالفخار.

دخل نيكو أولا، ثم تبعته ماريا، وحلّ وراءهما أنطونيو بعد أن أغلق البوابة. كانت جيرالدينا فوق كتف القزم، مضطربة من قلقه. صرّ الباب، فشغل الضوء الفضاء الذي لم يملؤوه. المطبخ مع الموقد من دون رماد، والمائدة التي نقشها أدولفو مالاكياس. جرى أنطونيو نحو غرفة والدَيه، صعد فوق السرير، فراش تغطيه ملاءة بالية، ضمّ القبّعة إلى صدره وتلا صلاة.

كانت ماريا تفتح خزّانات المطبخ وتعدّ الأكواب، والصحون، والأطباق. كان هناك من الأواني ما يكفي لثلاثتهم بالإضافة إلى ضيف من ضيوف نهاية الأسبوع. ذهب نيكو ليرى الدجاجات هناك في الخارج. ولمّا فُتحت النوافذ، رفعت الريح حاشية غطاء المائدة، وأنْعشتْ رقبة أنطونيو.

ـ سوف أبحث عن الفانوس. قال أنطونيو متوجّهًا إلى المستودع.

عاد نيكو يمسك ديكًا من رجلَيه.

ـ سوف تستمتع تيزيكا بأكل دجاج من هذا المكان.

ـ ها قد بدأ الليل يهبط، هيا بنا. قالت ماريا.

ارتطمت نافذة في المطبخ بفعل الريح. ومن نافذة أخرى كان يُرى المطر، من السحب حتى الأرض، جدار رمادي يقترب.

ـ عجبا! رجلان يخافان من المطر؟

أقنع نيكو ماريا بأن ينتظروا توقّف المطر عن الهطول، فأشعلت الفانوس. جلس أنطونيو على المقعد قرب المجلى وراح يُؤرْجح رجلَيه، وقدماه لا تلمسان الأرض.

ـ هل سيغضب جيرالدو لو نمنا هنا؟ سأل أنطونيو.

ـ نعم، ويمكن أن يبعث تيموتييُو وراءنا.

كانت جيرالدينا تُقيِّمُ البيت الجديد. عتبات الأبواب يمكن أن تكون مكانا مناسبا لتمكث فيها.

ـ سأُحضّر الأسِرّة. سوف ننام هنا.

دخلت ماريا إلى غرفة من الغرف الثلاثة. هي ونيكو سينامان في الغرفة التي كانت تأوي دونانا وأدولفو. أمّا الغرفتان الأخريان، فكانتا متداخلتين؛ لولوج الثانية، كان لا بدّ

من المرور عبر الأولى.

سمع أنطونيو الخيل. هناك في الخارج، كان تيموتييُو يلفُّ نفسه في معطف، يركب حصانًا ويشدّ آخر بحبل. دون أن ينطقوا بكلمة، خرج ثلاثتهم. أرْكبَ نيكو ماريا فوق حصان سيقوده هو. وضع أنطونيو خلف تيموتييُو وعادوا إلى مزرعة ريّو كْلارو. نامت ماريا مع تيزيكا، ونامت جيرالدينا فوق شجرة الجوّافة، بينما نام الأخوان في الغرفة التي تعجّ بالقُراد.

23

عند منتصف النهار، انتبهت ليلى لغياب جوليا.

ـ ذهبت إلى محلّ البقالة، لن تتأخّر كثيرا.

ـ كان عليك أن تخبريني، يا لوديريا، فأنا من يعطي التراخيص في هذا البيت.

كانت ليلى تتناول الغداء مع فؤاد، ابنها. وكان بدوره يتطلّع إلى معرفة أخبار جوليا.

لامت لوديريا ميسْياس، فقال لها:

ـ لولاي أنا لماتت هذه الصغيرة من الأسى. إن لم تعد سيّدتك ترغب في جوليا، أحتفظ بها لنفسي.

ـ سوف تطردني ليلى وتطلب الشرطة.

قدّم لها ميسْياس كوب ماء السكر، فقالت له:

ـ تعال معي يا ميسْياس لتشرح كلّ شيء لفؤاد وليلى.

ـ هذا غير ممكن. كلّ ما فعلتُ أنني ساعدت هذه الفتاة المسكينة كي تذهب لتزور أسرتها.

عادت لوديريا تستشيط غضبا، حاقدة على جوليا. كانت ليلى تنتظرها في المطبخ تشرب شايا. شعر نحاسيّ اللون

لامع، وحليّ من الأحجار الكريمة.

ـ هل أنت بحاجة إلى أيّ شيء يا سيّدتي؟

ـ أنا بحاجة لأفهم جوليا. ربيّتُها في راحة وصحّة، ولولاي لبقيت في الميتم لما تبقّى من أيام حياتها.

وتحت الصحن الصغير ورقة مطويّة. ورقة تركتها جوليا، خربشتْها بعصبية فكانت تخطيط قلْب قطٍّ يقفزُ.

سيّدة ليلى ولوديريا،

لن أتأخّر كثيرا، لا تقلقا. أستسمحكما، سوف أعود بعد زفاف نيكو. مع كلّ امتناني. جوليا.

لو أنّ جوليا اجتازت الباب، لأشبعتها لوديريا ضربا.

ـ سوف أبعث رسالة إلى الراهبتَين الفرنسيتَين. أنا لم أجلب الفتاة لهذا الغرض. قالت ليلى.

وقفت لوديريا من جديد أمام ميسْياس، فحاول أن يهدّئ من روعها:

ـ الذنبُ ذنبُك أنتِ. قال لها.

ـ جوليا لا تعرف شيئًا عن العالم، فمتى ستخرج؟ عندما

تصبح عجوزا؟

أدرك ميسْياس أنه قد أغضبها، فلطّف من لهجته قائلا:

ـ من يذهب يعود عاجلا أو آجلا. أنا أثق بها، لست أدري لماذا.

تحدّثت ليلى مع فؤاد وقرّرا أنه إن لم تعد جوليا بعد ثلاثة أيام، فسيُعيدانها إلى الميتم، وسيخبران الراهبتَين بالأمر بوساطة رسالة بريدية.

24

كلّلت تيزيكا رأس ماريا بأزهار ناضرة. فستان مطرّز بخيط ذي لمعان خافت، يتلألأ محتشما. لا يشبه في ذلك دهن شعر ولا طنجرة مصقولة بالرمل، بل جلدا ناصع البياض ينضح بقطرات دقيقة.

كان نيكو يرتدي معطفا ذا لون فاتح، وقميصًا أبيض. ينتعل حذاء جلديًّا، تلقاه هدية من جيرالدو. كان أنطونيو يرتدي قميصا وسروالا خاطتهما له تيزيكا على مقاسه. حواشي القميص داخل السروال، الذي يشدّه بحزام يطوّق جيّدا خصره الطفولي.

كانت الكنيسة الصغيرة ممتلئة عن آخرها. نيكو عند المذبح. وقف الشهود؛ من جهة أنطونيو وغونسالينا، شقيقة ماريا، ومن جهة أخرى تيموتيُو والأخت سيسيل. ومكان والدَي العريس، جيرالدو وتيزيكا. كانت الأخت ماري تنشّف عن نفسها العرق في الصفّ الأول.

كان كل أهل القرية مدعوّون للحفل.

كانت تيزيكا قد انتهت من تحضير ماريا، ولم يعد ينقص غير مستخدم من مستخدمي جيرالدو كي يعدّ عربة الثيران. لم تكن تلك هي العادة، لكنها كانت إرادة والد ماريا: أن يحملوا ابنته العروس فوق عربة يجرّها ثوران. كان الثوران يتقدّمان

بنبل، وعيونهما مركّزة على الأفق، يعرفان أن الحمل مهمّ وإن خفّ وزنه.

عندما وصلت ماريا، يحرسها رجال آخرون يمتطون الخيل، ساعدها والدها كي تنزل من العربة، بعد أن ظلّ ينتظرها عند باب الكنيسة. في فسحة الساحة، كان أطفال يلعبون دون أن يختبئُوا، ينثرون قهقهات ضحك فوق الأرض المعشوشبة من حولهم. أمسك الأب ابنته من ذراعها. نهض المدعوّون، فصدح كورسٌ من أربع نساء لتحية العذراء.

شعر نيكو بالخجل من كلّ هذا الحشد من الناس الذين حضروا لأجله. كان أمرا محرجا أن يُظْهر حجم حبّه هناك أمام الجميع. كان الحفل سريعا، والجوع يشتدّ.

لم تكن جيرالدينا تتجاوز المقعد الثالث، فرائحة المذبح كانت حادة، وهي لا تستطيع أن تتقدم دون أن تفقد دماثتها. اتخذت لنفسها مكانا قرب صديقات زمانها، الطاعنات في السنّ، الصمّاوات، مثلها تقريبا. كما أن حضور جيرالدو كان يثير غضبها. قرابتُهما كانت تصيبها بالقرف، وتثير فيها رغبة في الحكّة.

فتح أنطونيو بوّابة المزرعة. تيزيكا، التي كانت قد دخلت إلى المطبخ، بدأت تزيل المناديل التي تغطّي اللحم المشويّ. جلس الجيران وعمّال جيرالدو فوق جذوع الأشجار التي اتخذوا منها مقاعد في الحديقة.

دخلت ماريا إلى الغرفة لتغيّر فستانها. كان نيكو ينتظرها في القاعة، وبالقرب منه كان يجلس بعض أصدقائه من مزرعة ريّو كْلارو. كان الأطفال يجْرون تحت شجرة الأفوكادو. أغلقت ماريا على نفسها في الغرفة، وفكّت أزرار الفستان. لقد تلقّت عدة هدايا: مزهرية، سجّاد، قِدْر، دمية قماشية، غطاء سرير مطرّز، صحون زجاجية، مغرفة، مقصّ وناموسية. كان كلّ هذا مرتّبا فوق سرير الزوجَين. وألومينيوم القِدر يلمعُ وميضُه في مرآة الدولاب.

ـ تعالي ماريا، لقد وصلت فرقة «الملوك المجوس». همهم نيكو خلف الباب.

رجل رشيق، يرتدي ملابس مزركشة الألوان وقناعا، كان يقوم بحركات مضحكة. خلفه كان يمشي الموسيقيون يحملون آلة أكورديون، وقيثارة، وطبلا. وفي الأخير، رجل يرتدي سروالا سندسيا يرفع لواءً، به ثلاثة نجوم وطفل. جاء «الملوك المجوس» ليباركوا الزواج. دخلوا إلى البيت وهم يرفعون اللواء. نهاية ديسمبر: ميلاد شيء وموت شيء آخر. اصطفّوا في المطبخ فأنشد عجوز أسود ترنيمةً. خفّف الأكورديون من نبرة صوته، فغمر الصوتُ البيتَ بارتجاج مرفرف. كان الرجل المقنع يُقلّبُ عينَين عاصفتَين، يلُفّ برأسه من مكان لآخر، ويقوم بقفزات في مكانه. عند نهاية الابتهال، لَبَدَ عند قدمي عازف الأكورديون. قبّل نيكو اللواء ثم حمله إلى كلّ الغرف ليُعمّد المنزل.

25

حلّ الليل في محطّة الباصات.

ـ هيا بنا إلى البيت ولنترك هذا الصبي عند الشرطة. آه، اسمي دينورا. كم معك من المال؟

ـ ما يكفي رحلة ذهاب وإياب إلى سيرّا مورينا.

ـ وأين هو هذا المكان؟

ـ تزوّج شقيقي اليوم، وعليّ أن أذهب إلى هناك.

ـ أولا، عليك أن تحلّي مشكلة هذا الرضيع. ماذا ستقولين لو طلبوا منك وثائقه؟ سيظنّون أنك سرقته. هناك مخفر شرطة بالقرب من بيتي. انظري، إنه بحاجة إلى حمام، أوف، رائحته كريهة! تعالي معي، لنحمّمه ونقدّم له حليبا، ثم نأخذه إلى الشرطة. ثم تذهبين لتري أخاك، بعد ذلك.

ـ سوف أعود معك من جديد غدا وأشتري تذكرة السفر.

ـ حسنا، أنا أبدأ العمل في الحمّام الساعة السادسة صباحًا. أولا، الرضيع، ثم أنت بعد ذلك.

سافرتا على متن قطار من قطارات الضواحي. عندما فتحت دينوار باب بيتها، كان ابناها يأكلان معكرونة في المطبخ.

ـ هذه جوليا وهذا الصبي، الذي أسمّيه جورج، وجدتهما معا في محطّة الباصات. أنتما ستنامان في القاعة هذا المساء.

26

كانت ماري تعاني من آلام رأس وزكام حاد. دخلت سيسيل إلى الغرفة دون أن تقرع الباب، جلست على حافّة السرير وفتحت الرسالة:

ـ هل يمكن أن أقرأها؟

منزعجة، فسحت لها ماري مكانا على السرير.

أيتها الراهبتان المحترمتان؛

أظنّ أنني أخطأت بشأن طريقتكما في تربية الأطفال في المدرسة والميتم. فالتربية تتجلّى في الأدب والاحترام قبل كلّ شيء. لكن، بعد هروب جوليا المحتمل إلى سيرّا مورينا، فإنني أعيدها إليكما. شخصيا، لا أعدّها تحت إمرتي بعد مثل هذا العصيان. يا لَها من سخرية بالنسبة لمَن تربّى تحت رعايتكما! لنبقَ بسلام أنتما وأنا، فلا ضحية بيننا ولا مذنب. آمين.

ـ هذه المرأة أقلّ رشدا من جوليا. قالت ماري.

ـ ظنّتْ أننا سنقدّم لها الفتاة كاملة التربية. لا بدّ من شيء من الوقت كي تصبح المرأة مستعدة.

ـ ما العمل؟

ـ غدا أخرج نحو سيرّا مورينا. سوف أخبر نيكو. لم يحدثني

حتى عن غياب أخته. لا بدّ أنه قام بذلك حتى لا يبكي.

ـ سيسيل، أين هي جوليا برأيك؟

ـ في الطريق طبعا. لا بدّ أن شيئا ما جعلها تتأخّر.

ـ وماذا لو لم تتقبّلها ماريا؟

ـ سوف تتقبّلها. إنها امرأة مسيحية مثالية، حسب ما لاحظتُ. لا يمكن أن تتدبّر أمورها وحدها مع رجلين في البيت. أمهلهما عامين قبل ميلاد الابن الأول.

ـ صحيح، إنها وحدها رفقة رجلَين. قالت ماري.

ـ كلام فارغ! أنطونيو يكاد يكون ابنا لنيكو؛ لأنه لن يصبح راشدا أبدا.

ـ الطبيعة فظيعة. لقد كان هنا في الساحة تحت عيوننا.

ـ لا بدّ أن جوليا قد وصلت إلى هناك.

27

جاء تيموتييُو يحمل ظرفا. فتحه جيرالدو.

ـ يطلبون من الجميع أن يحضروا إلى الكنيسة ظهيرة هذا اليوم. إشعار عام جاء من المدينة. سوف تذهب نيابة عني يا تيموتييُو. أمرٌ غير مهمّ، من دون شكّ. سترى أنهم يريدون أن يقدّموا للناس الطبيب الجديد.

كان نيكو لا يزال يشتغل في مزرعة ريّو كْلارو. استلمت ماريا البلاغ في البيت، لكنها لا تعرف القراءة. فكّ أنطونيو رموز الرسالة ببطء، وبدأ يجمع مقاطع الكلمات.

ـ نغلق البيت ونذهب. لا بدّ أن نيكو سيأتي من المزرعة رفقة تيموتييُو وتيزيكا. وفي هذه الأثناء، لا بدّ أنهم قد علموا بأمر الرسالة.

أُغلقت البيوتُ، وتقاطر الأطفال، والنساء، والرجال، يتبعهم الكلاب. التقوا في الطرقات وراحوا يتساءلون فيما بينهم. لم يسبق لهم أن استلموا إشعار موجّه للجميع وعلى وجه السرعة.

امتلأت جنبات الكنيسة، وأبلغهم رجل ذو صوت واضح الرسالة. من أجل تنمية المنطقة سيتم بناء محطة لتوليد الطاقة الكهربائية. ولهذا الغرض، فإنه من الضروري تشييد سدّ مائي.

وكان المكان المناسب لذلك يشمل معظم الأراضي بما فيها وادي سيرّا مورينا. وستقوم الشركة بتعويض الملاّكين وتعمل على بناء منازل جديدة في المدينة. لقد وصل المستقبل.

ـ ومن أين سيأتي الماء؟

ـ كم حجم المياه التي يمكن أن يتّسع لها الوادي؟

ـ هل ستغمر بيتنا؟

ـ أنا لن أغادر بيتي، ولو ميتا.

زوّدهم الرجل بالعنوان حيث يمكنهم أن يذهبوا كي يتفاوضوا حول أثمنة مزارعهم، وتمنّى لهم ليلة سعيدة.

ـ سأكون أول من يغرق؛ لأنني قصير. قال أنطونيو.

ـ هل سيُغرقوننا؟ قالت تيزيكا.

ـ في نظري، سوف تصل المياه دفعة واحدةـ قال تيموييُو.

ثم خلت الكنسية من الناس شيئا فشيئا. بقي إنييْدو، جار دونانا سابقا وجار نيكو الآن. البيت الذي ولد فيه وترعرع في جنباته لن يهدمه أحد بضربات مطرقة كي يحوّله غبارا. إن كان لا بدّ أن تصعد المياه، فستغمر البيت كلّه، وهو بداخله. وستغمر -أيضا- كلّ الأثاث، والأبناء مع الزوجة، والغسيل المنشور فوق الحبل.

قفز جيرالدو من فوق الكرسي.

ـ لكن ستغمر المياه المزرعة! غدا اذهب إلى المدينة لتتحدث مع ذلك الرجل. كان علي أن أذهب بنفسي، أنت لا تعرف حتى كيف تنقل رسالة بشكل صحيح يا تيموتيُو! أرى أنك لم تفهم شيئا. هل قلت إنك تشتغل لصالحي؟

ـ لم يسعفني الوقت لذلك.

ـ حسنا، سوف تأتي معي غدا، وتستمع جيدا كي تعيد ما تسمعه على هؤلاء القرويّين الأغبياء.

في اليوم التالي، عاد جيرالدو واستدعى أهل القرية إلى الكنيسة. أكّد لهم كلّ شيء، وأن الوادي سيتحوّل إلى سدّ عميق ليُشغّل محطةً لتوليد الطاقة الكهربائية، وأن المدينة ستصبح مضاءة حتى أعالي الجبال. من سيستقرّون في الأعالي، لن يواجهوا مشكلة المياه بل سيرتاحون وهم يستمتعون بمنظر رائع. لن تتضرّر مصالح أيّ أحد من المشروع. وأنه هو شخصيا، جيرالدو، سوف يتكفّل بالتفاوض حول أثمنة المزارع واستخلاص الأموال. هذا ما اتفق عليه مع الرجل، وأن التطور لا يأتي دون مخاطر، في نهاية المطاف، كما قال الرجل.

انكمشت جيرالدينا على نفسها، خائفة من الغرق، ليس بسبب رئتيها؛ لأنها لا تملكهما، بل خوفًا على مُضيفها أنطونيو.

28

كان بعض السكان قد بدؤوا يلفّون الأواني استعدادًا للرحيل. كان جيرالدو يأخذ عُمولة عن كلّ أسرة يقنعها. فكّر في إنشاء تجارة في المدينة والعيش على ما بدأ يتوفّر من ثروة جديدة. ولمَّا كان يملك أراضي أخرى، فإنه سوف يستأنف الاشتغال بالفلاحة، وما سيناله من بيع المزرعة سيعوضه عمّا قد يلحقه من إزعاج نتيجة الرحيل.

كانت تيزيكا لا تبرح الصلوات التُّساعية. بعد ثلاثين يوما، على الساعة السادسة صباحا، ستبدأ المياه تَقَدُّمها. كانت ماريا حاملا منذ ثلاثة أشهر؛ فعجّل هذا الخبر بقرارات نيكو. سوف يتفقون بسرعة على البيع من أجل بناء بيت جديد. قدّر جيرالدو ثمن المزرعة بنصف قيمتها. انضمّ فريديريكو إلى فريق المتطوّعين الذي خلق حماسا كبيرا. كان الناس يتعاونون فيما بينهم لبناء بيت أحدهم. وكان تيموتييُو يعتني ببناء زرائب الحيوانات.

كانت نوبات دُوار تنتاب ماريا، فيغمى عليها مع الشمس الحارة، وترتعش مع الريح. شارك أنطونيو في الأشغال. كان يظهرُ دقّة يدي الصانع الصغيرتين والماهرتين من خلال بناء مواقد النار وإنهائها على أحسن وجه. وصنع من التبن مكنسة صغيرة لجمع الجمر.

أدى جيرالدو أجر نيكو وعرض عليه حجارة من المزرعة لبناء المنزل. عرضها عليه ليشتريها. رفض نيكو العرض؛ لأن المال لم يكن كافيا.

ـ يمكنك أن تؤدّي ثمنها لاحقا، مقابل العمل معي.

ـ لدي موادّ بناء، سيد جيرالدو.

وكذلك كان. كان والد ماريا يقيم بعيدا عن كل ذلك التقدّم الذي وصل، فحصل عن قسط قليل من كل شيء. وبإضافة بعد العناصر من مزرعة والديه التي يستطيع أن يعيد استعمالها، كان بإمكانه بناء البيت الجديد. بيت أصغر، لكنه يتوفّر على ما يكفي من المساحة من حوله تسمح بإضافة غرف أخرى مع مرور الوقت.

ارتفعت الجدران، وصُقلت الأرضية بلون أحمر. ظلّت النافذة فارغة لأنه كانت تنقصها الألواح الخشبية التي سوف تأتي من البيت القديم في آخر لحظة. صبغ أنطونيو الموقد بلون أحمر مثل الأرضية، فكان الموقد والأرضية مثل ياقوتتَين.

لم تشارك تيزيكا في العمل الجماعي. كان عليها أن تطوي الملابس وتنشرها، وتضع الأواني في العلب في مزرعة ريّو كْلارو. سوف تذهب هي وجيرالدو إلى المدينة في انتظار بناء منزل المزرعة الجديدة. وسيكون بيت سيّد، دون مساعدة من أيّ أحد، دون عجلة في إنجازه. سيكون أفخم من البيت القديم، مع رواق يعبره من طرف إلى آخر. أفرغت تيزيكا

الدواليب فأخرجت منها ملابس، وجوارب رقيقة، وأمشاطا عظمية، ومشبكا حجريا، ومرآة انزلقت وسقطت من فوق ملاءة فتهشّمت وتناثرت شظايا فوق الأرض. مشت تيزيكا فوقها حافية القدمين فلطّخت المنديل بدم داكن انبجس من الجرح.

كانت ماريا تعاني من آلام تحت سُرّتها. انتفخت يداها؛ لأنها كانت تحتفظ في جسمها بالسوائل كلّها، على اختلاف طبيعتها. كانت تشرب القهوة كمن يتناول مرطبا، وتأكل لحم الخنزير كمن يتذوّق الفواكه. كانت بشرتها دهنية، وينتابها دوارُ مَرْكب يمشي على غير هدى. كان نيكو ينتبه بصعوبة إلى زوجته، لا يواسيها إلا ليلا، عندما ينتهي من عمله المضاعف.

لم يسمح جيرالدو بفترة راحة لعمّاله. ستبقى مزرعة ريّو كْلارو وفيرة الإنتاج حتى آخر يوم.

كانت ماريا تقطع الخشب، تغسل الملابس، تكنس الفناء، وتخيط أغطية المهد. وعند نهاية النهار، تركب عربة الثيران وتذهب إلى البيت الجديد، الذي لا يزال من دون سقف، تحمل حلوى لمن يشاركون في العمل الجماعي. كان أنطونيو يراها قادمة فيتوقّف عن القيام بما ينجزه. كان يبدو له جميلا رؤية ماريا وهي قادمة.

29

ودّعتْ دينورا جوليا.

ـ اعتني جيدا بهندام العمل. ربّما يتعلّق الأمر بحمّام، لكنّ الناس يحبّون البذخ حين يسافرون.

كانت جوليا قد أودعت الرضيع في مخفر الشرطة، وبعثت رسالة إلى ليلى تخبرها أنها كانت مع أخيها وأنها ستبقى معه. بحث ابْنا دينورا عن نُزل لتسكن فيه جوليا. وحصلت لها دينورا عن عمل مثل عملها. ومنذئذ كانت تجلس عند باب الحمام، الأقرب إلى أرصفة الذهاب. تقطع ورق النظافة إلى قطع من نصف متر، ترمي الأزبال، وتلمّع الأرضية بمنديل وسائل الأمونياك خمس مرات في اليوم. كان العمل أقلّ إرهاقا من العمل في بيت ليلى، لكنّها اشتاقت إلى الأواني وصمت الدواليب.

كانت تفوح برائحة الصنوبر أو الخزامى حسب نوع المطهّر. لم ير فيها ابنا دينورا ما يجذبهما. كانت امرأة ذات عفّة مقرفة، وشيئًا ما من طبيعة الراهبتين. كانت تمرّ بباب مرحاضها أكثر من ألف امرأة كلّ يوم. كانت تنتبه لأحذيتهنّ، وتنّوراتهنّ وأحاديثهن. كانت الشابات أكثر توتُّرا، والمسنّات أكثر حزنا.

كانت لوديريا هي الأولى التي قرأت رسالة جوليا.

ـ لن ترجع، بقيت هناك.

ـ لا بدَّ أن الراهبتين أخبرتاها أنني لم أعد أرغب في استقبالها في بيتي.

ـ اشتقتُ إليها، وميسْياس أيضًا... الرجل أغرم بها، وطلب مني صورة لها لأعطيها إياه. هل لديك صورة لجوليا، سيدتي؟

ـ لن أعطيها إياه حتى لو كنتُ أملكها. انتهى هذا الموضوع، يا لوديريا.

كانت الراهبتان الفرنسيتان تظنان أن جوليا قد عادت إلى صوابها.

لم يستطع نيكو أن ينتظر أكثر، فذهب إلى المدرسة يسأل عن أخته.

ـ أظن أنها قد عادت إلى بيت ليلى. إن كانت قد تاهت، كنا سنعلم بالأمر. قالت ماري.

كانت جوليا تفكر في أخوَيها كما لو كانا طفلَين. لم تكن قادرة على أن تتصوّرهما رجُلَين. كانت تلاحظ حركة الناس يأتون ويذهبون، يركبون الحافلات وينزلون منها، إشارات الوداع والتحية، الأطفال الملفوفين بعناية، والشيوخ الذي يحملون معهم وسادات. في القطار، عند عودتها رفقة دينورا، كانت تشعر أنها تسافر كلّ يوم عبر المسار نفسه.

ـ هل ما زال أخوك ينتظرك؟

ـ كلّا. الراهبتان تظنّان أنني مع ليلى. أمّا نيكو وأنطونيو، فيظنّان أنني لم أملك الشجاعة كي أعود إلى هناك.

ـ وهل هذا صحيح؟

ـ كلا.

ـ مع الأسف. كان لديك من الوقت ما يكفي لتذهبي وتعودي. لماذا نزلْتِ من الحافلة عندما أقلعت؟ لأن بيتي أعجبك، أليس كذلك؟

ـ يعجبني أن أرى الآخرين يذهبون، فأظلّ أرقبهم. أتخيّل ما يحملونه في حقائبهم، وما تركوه في بيوتهم، والأُسْرة التي تنتظرهم. لم يكن الشبّان يعلمون حتى إن كنت سآتي أو لا.

ـ اسمعيني جيدا، لن تستطيعي دفع ثمن الكراء فقط بالعمل في الحمّام. عليك أن تبحثي عن عمل تكميلي آخر.

30

كانت أمامهم ثلاثة أيام ليغادروا المكان. في اليوم الثالث، سوف تُحوِّل المياهُ الوادي إلى بركة، إلى سدّ لإنتاج الطاقة الكهربائية. لكن نصف سكّان الوادي كانوا قد رحلوا.

ـ أودّ أن أعرف كيف يمكن للماء أن يشعل مصباحا. كان تيموتييُو يتساءل.

ـ من الأحسن أن نذهب لننام! غدا نحمل ما تبقّى من أغراض إلى المدينة. أمرت تيزيكا.

كانت نوبات الدوار التي تصيب ماريا قد خفّت بفضل ماء الترنجان. لفّ نيكو آخر سيجارة في اليوم قبل أن ينهار فوق السرير. كان أنطونيو يغسل قدمَيه في بيت المؤونة. كانت النافذة مفتوحة كي تنعش الريح الغرفة، فاليوم حارّ جدّا والبيت كالفُرن.

كان إنييْدو لا يزال جارا لنيكو، لم يفعل شيئا ولن يفعل أي شيء. زوجتُه كانت قد ذهبت إلى المدينة رفقة بناتها، أمّها وحماتها. كان إنييْدو يشكّك في السدّ، ويقول إنه لا يمكن أن يظهر هكذا فجأة شيء لم يكن له أيّ وجود من قبل، وأن السدّ لن يوجد لأنه لم يوجد من قبلُ. اضطجع، وسبحته ملفوفة عند طرف السرير.

دسّ أنطونيو يديه تحت جسده، وانكمشت جيرالدينا تحت الدولاب. كان الوادي نائما. كانت المياه تتقدّم، متدفّقة، بقوة محرّك، تكنس الأرض، وأوكار الأرَضة، والشجيرات اليابسة. كانت بعض الخيل تجري وسطها.

نهض نيكو على صياح ديك في غير موعده. خرج يضيء الليل بشمعة، فلاح له لمعانٌ يتحرّك، بلوريًّا، مع أن القمر كان مختفيا. كان هو ذلك الحيوان الرّخوي، ذلك الأخطبوط الذي ينشر لوامسه نحو البيوت، السدّ الذي يتقدّم نحو الوادي.

أيْقظَ ماريا وأنطونيو اللذين خرجا بملابس داخلية. وكان ثلاثتهم فقط يمشون فوق الطريق المتربة.

ـ يكفي أن نصعد، ولا حاجة لبلوغ القمّة. سأمرّ عند تيزيكا، وأنادي تيموتيُو.

ـ كلا. سوف نصعد، ستأتي معنا. أجابته ماريا.

شعر أنطونيو بالخجل من البكاء، ولكنه، مع ذلك، بكى بكاء خفيضا، من دون ضجيج.

ـ هل ستصل المياه عند جوليا أيضًا؟ سأل أنطونيو.

ـ جوليا بعيدة، في بيت آمن. أجابه نيكو.

كانت ماريا هادئة بفضل معجزة هُرْمونيّة. كان أنطونيو هو الأخير في صفّ من ثلاثة فوق ظهر سيرّا مورينا. وبالإضافة

إلى إنييْدو، كان هناك بعض السكّان الصامدين، الذين ينامون تحت سحر البحر، رغم الطيور، والخنازير والكلاب الهائجة. لم يكن هناك من شيء يخرجهم من راحتهم، كما لو أنّ قصدا سابقا كان يُهدْهدُهم.

استيقظ إنييْدو، وفتح عينيه فجأة. أسرع نحو النافذة ورأى الوادي يتحوّل إلى جفنة. ماء جاري، وبارد. شعر بالسائل في ربْلتيْ ساقيه.

بقيت جيرالدينا في البيت. لم ينتبه أنطونيو إلى أن جسده صار أكثر خفّة ممّا يتطلّبه الوضع، بين استعجال الرحيل والخوف من المصيبة. وبقيت جيرالدينا بسبب انسجام غير معهود مع رطوبة الهواء، التي شلّت حركتها، مثل غبار محلول ينتظر سائلا ينقله إلى حالة مختلفة.

بدأت بعض الأُسر تستيقظ، وقد ارتفعت المياه إلى مستوى أحواض الغسيل، تبلل أذرع النائمين. ووسط الظلام، كانت تبلّل أعواد الثقاب، والشموع، وتهرق علب الكيروسين. جلس إنييْدو في الشرفة، وقد بلغت المياه ركبتيه. هنا، لا أحد يعرف السباحة غير جيرالدو، الذي انتعل بخفّة جزمته في الغرفة، داخل المنزل الرئيس في المزرعة الذي يقع في مستوى أعلى.

صارت المياه سيلا جارفا وهدّمت الحواجز. هَدّم جدارُ المياه السياجات المعدنية، الصدئة منها أو الخشبية التي نخرها العثّ. بعضهم كانوا يجرون عبر الطريق وهم يرَون بيوتهم

تغمرها المياه، التي تملأ الغرف كما يملأ الصنبور كأسا. صعد إنييْدو فوق السطح وجلس. رأى الصحن الأخضر يتغطّى بعسل أسود، اللمعانُ اللّزج للسدّ يتشكّل ليلا.

ظلّت أُسرةٌ مشلولة الحركة أمام الفيضان. لم يغادر أفرادها البيت، فتركوا أنفسهم يغرقون في صمت. خوفا من الطبيعة، تقبّلوا قدر التقدّم، فصاروا أكباش فداء. شلل انتصار، كأنه حقنة مورفين، من دون ألم، فظلّوا صامتين.

في أعلى سيرّا مورينا، نيكو، ماريا وأنطونيو. فوق سطح بيته، إنييْدو. ولا أحد سواهم.

31

قبل طلوع النهار، غيّرت المياه ملْمس الأشياء. كانت تهبّ على السدّ ريح يُخفيها سطح المياه، الأرض تطلق هواء، الأعشاب تنحني على جنبها، وتَظْهَرُ الأسماكُ.

تغيّر شكلُ جيرالدينا تحت الماء مثل عقد يرقد في قاع البحر. تفكّكت بنيتُها الخطية وأطلقت أكسيجينا وهي تتشتَّتُ. تاهت منها قطعٌ عبر أنابيب التدفئة، خرجت بعضها من البيت لتطفو على سطح البحيرة. سقطت قطعة دقيقة منها تحت كرسي، فكانت كلّ شظية منها لامسة من دون مركز، ولا رأس، ولا قشرة دماغ. وكان مجموع الخرزات يشكّل العقد، بغض النظر عن المكان الذي توقّفت عنده كل خرزة، ولم تكن هناك نهاية للتشتّت. كلّما ابتعدت قطعة من القطع الأخرى، كان التفكير قصيّا. صيغةٌ ذات مبدأ نشيط مُخفَّف.

تشكّلَ الوحلُ بسرعة داخل البيت. وما كان صالحا للشرب في المصفاة امتزج بالباقي؛ بالمياه المستعملة، بالآبار، وبالحليب في الأواني.

استطاع جيرالدو أن ينتزع تيزيكا من غرفتها، ورفقة تيموتيُو ذهبوا جميعا إلى المدينة. نام تيموتيُو وتيزيكا في البيت الذي تم اقتناؤه مؤخّرا، وعاد جيرالدو إلى سيرّا مورينا ليرى في واضحة النهار ما أصبح عليه الوادي. غادر الطريق

وسلك دربًا متربًا مستقيما، ومرّ أمام سياجات كانت تحميها الآن مرآةٌ سائلة. اختفت الحدود بين الأراضي. كانت مِسَلّةٌ تبرز من المرآة، السقف المقبّب للكنيسة وهو يشير إلى الشمال مثل إبرة بوصلة. التهمت المياه كلّ شيء، ولمّا تأخّرت كثيرا في سريرها، فسوف تمضغ الأرض شيئا بعد شيء آخر. في الدرب، التقى جيرالدو بنيكو الذي كان يحدّق في إبرة البوصلة.

ـ أين هم الآخرون؟

ـ إنهم في البيت. كان الوقت كافيا.

وجدا نفسيهما في المستوى نفسه. ترجّل جيرالدو من صهوة الفرس ووضع قبّعته على صدره، احتراما لجسد وذكرى والدته التي فقد قبرها. فجّر الحزن كيس حمل جديد، فتكسّر الجانب الداخلي في خرزة ممّا أدّى إلى تكسير باقي خرزات العقد أينما وجدت. هكذا، فقدت جيرالدينا طبيعتها. رأى جيرالدو نفسه طفلا صغيرا يجري فيما كان من قبل غابة، يبحث عن أعشاش الطيور، يدسّ يده حتى يهشّم أبوابها المقوّسة.

كل الأجزاء الدقيقة للأم التحمت مع صيغة الماء. كانت جيرالدينا عنصرا من عناصر السدّ، لكنّها تملك خصائصها المميزة، مثل أيّ مادة أخرى. وبعيدا عن ضفاف سيرّا مورينا، كانت المياه فقط مياه العالم وجيرالدينا يمكنها أن تندمج فيها من جديد. أمّا في السدّ، فكانت سُمًّا تخفّف كثيرا حتى إنّ مفعوله قد يكون بعيد الاحتمال.

32

حصلت جوليا على عمل تكميلي كما نصحتها بذلك دينورا. سوف تبيع مجوهرات مقلَّدة وموادّ تجميل عبر البريد. كانت تضع الكتالوج قرب ورق النظافة في الحمّام الذي تراقبه. كانت بعض النساء يسألنها إن كان بإمكانهنّ أن يأخذن الكتالوج ليتصفحنه داخل الحمام. لكنهن يُعدنه إليها دون أن يطلبن شيئا.

ـ كيف تريديهن أن يشترين وهن على سفر؟ يجب أن تعرضي الكتالوج على من يشتغلون في المحطّة. نصحتها دينورا.

عملت جوليا بنصيحتها، وبدأت تبيع مزيلات الروائح في شبابيك شركات نقل المسافرين. أكثر من ثلاثين قطعة كل شهر. وجد ابنا دينورا غرفة لجوليا في نزل عائلي، فانتقلت إليها تحمل كيسا من الملابس. كانت الغرفة تتوفّر على سرير، ومنضدة، ودولاب وصوان. حمام في الرواق ومطبخ مشترك، حيث كانت تطهو خبزا باليانسون. عطّرت النزل وخففت عن عزّاب الأُسْرة في الغرف المجاورة.

كانت عائدة من فترة الغداء عندما دخلت السيدة ذات اللباس البنفسجي إلى الحمام، وكانت ترتدي لباسا أبيض هذه المرة. كانت تحمل رضيعا آخر بين ذراعيها. لم تتعرّف جوليا،

التي كانت ترتدي، بالإضافة إلى بذلة العمل، قبّعة تغطّي شعرها. بقيت المرأة أربعين دقيقة كاملة هناك داخل الحمّام، ثم خرجت من دون الرضيع. اصطفّت مجموعة كبيرة أمام باب الحمام لكن جوليا لم تستطع أن تنهض لتراقب المرأة. وما إن تفرّقت المجموعة حتى رأت امرأة تخرج وهي تحمل رضيعا بين ذراعيها، يبكي مطلقًا صيحات زاعقة. حكت ما حدث لدينورا.

ـ لا تحشري نفسك في هذا الأمر، إن ظهرت المرأة مرة أخرى فغطّي وجهك بيديك، ولا تدعيها تتعرّفك.

ظهرت المرأة مرة أخرى ولم تذهب إلى باب الحمّام، بل قصدت جوليا مباشرة لتتكلّم معها:

ـ أين هو الرضيع الذي تركته معك؟

ـ ورق النظافة.

ـ أمهلك يوما واحدا كي تعيدي لي الرضيع. سرقةُ الأطفال تؤدي إلى السجن.

لم يكن خوفا، بل ارتعاشة باردة هو ما شعرت به جوليا. يستحيل أن تنتظر أمٌّ كل هذا الوقت دون أن تبحث عن طفلها، ولا يمكن أن تلتقي بالشخص الذي تركته معه ثم تنتظر يوما آخر. كانت دينورا تفكّر في كل ذلك وهي على متن القطار.

ـ عندما ننزل من القطار نمرّ إلى مخفر الشرطة. سوف

تتحدثين مع السيد أماديو، تعطيه أوصاف تلك السيدة، وانتهى الأمر.

في مخفر الشرطة، كان أماديو جالسا بقميصه المُزرّر، إلا في الوسط حيث يبرز بطنه الناتئ، وتطل شعيرات رمادية من فتحته.

ـ هل ترين ذلك الرجل، هناك في الممر؟ إنه تاديو، هو من سيقوم بالتحقيق؛ لأنه هو من أخذ الرضيع الذي أتيتُما به وأودعه في مؤسسة القاصرين.

ـ هل وجدتُم أمّه؟

ـ إنني لا أعرف حتى أين هي أمي، يا امرأة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

33

كان بطنُ ماريا يلمع من فرط تمدُّده. بعد أن استقرّت في المدينة، لم تظهر تيزيكا ثانية في سيرّا مورينا. لم يكن سنُّها يسمح بتحركات كبيرة، فكانت تتجوّل في المدرسة أو في الأسواق. وكان يعجبها دكان الخرداوات القريب من البيت. لم يعد جيرالدو يكلّفها إلا بأشغال خفيفة. تشرفُ على بعض الأمور دون حاجة لإنجازها شخصيا في البيت الجديد: منزل فسيح يطلّ على الساحة، وشرفة موجّهة نحو الكنيسة ذات البرج العالي والأجراس السميكة. كانت في أغلب الأوقات تعاشر الراهبتين الفرنسيتين المتقدّمتين في السنّ مثلها، وهما في أواسط الستينيّات بعد أن تركتا نهر الحياة الهادر في العالية ودخلتا في جدول السافلة.

في سيرّا مورينا بقي نيكو مع أسرته وإنييْدو، الذي شاهد بيته يغرق شيئا فشيئا وكاد يترك نفسه ليهلك بداخله. بعد ذلك، غمرت المياه كل شيء، فاختبأ خلف الشلال في سيرّا مورينا. أفراد أُسرته، الذين استقروا بالمدينة مثل تيزيكا وسكان القرية السابقين، عدُّوه في عداد الموتى.

كان نيكو مضطرا للمشي مدة ساعتين إضافيتين كي يصل إلى عمله في مزرعة جيرالدو الجديدة، البعيدة جدا عن سيرّا مورينا. اشترى من مشغله خنازير ودجاجات. أقام أنطونيو مبقلة للخضر، وبستانا للفواكه وحوضا لزراعة الكزبرة. طلبت

منه ماريا أن يزرع -أيضًا- نبات السّذاب، ففعل ذلك دون أن يعرف لماذا، ولم يطرح سؤالا. وكانا معا يتحرّكان في البيت وفق كوريغرافيا تفرضها حاجيات المزرعة. فإن كانت الأولى تخفق البيض، يقوم الآخر بكنس الفناء. وبينما ترمي الأولى حبّات الذرة للدجاج، يقوم الآخر بتقطيع خشب الموقد.

شعرت ماريا فجأة بانقباض عند أسفل بطنها، في حوضها، ثم في كامل جسدها. كان والداها يسكنان بعيدا، ولا يزوران بناتهما المتزوّجات إلا لماما. كانت أمها قد فكّرت في المجيء لتساعدها ساعة الولادة، لكن الوضع جاء قبل الأوان وهي لن تصل قبل ثمانية أيام.

عندما عاد نيكو إلى المزرعة، سمع أنين ماريا في الغرفة، فحدس ما يجري، ولم يجرؤ على الدخول. بحث بنظراته عن أنطونيو، الذي خرج من الغرفة لاهثا، يحمل حوض ماء وردي وملابس حمراء من خضاب الدم. من دم خالص، دون مُذيب. تجاوز نيكو، ملأ الغلاية بالماء مرة أخرى ثم أخذ منادل نظيفة.

ـ لقد ولد الأول، هناك اثنان. أخبرهُ أنطونيو.

خلع نيكو قبعته وخرج إلى الفناء. كان بدر الصيف كاملا في كبد السماء، فاكهة تنفجر قشرتها. انتزع القميص كما في زمن طفولته المحمومة، تمدد مديرا ظهره إلى السماء، وجهه داخل قبّعته، وتنفّس داخل ذلك الكوب من التبن. تذكّر أمه وهي تضع جوليا، وما صاحب ولادتها من أصوات. وفجأة،

لفّته رائحة لاذعة، ولم يسمع ولادة المولود الأول. إن كان ميتا، كان أنطونيو سيخبره بذلك. كان يفتح البوابة عندما انحنت شعلة الشمعة تحت صيحة الرضيع. ومن موقعه كان يستطيع أن يرى الضوء الأحمر داخل الغرفة، النافذة المفتوحة، وظِلُّ أنطونيو على الجدار، طويلا وشامخا. ظنّ أنه لمح ظلا تحت النافذة، فأبى أن يصدق ذلك في حينه.

تمددت ماريا فوق الوسادات، تفتح ساقيها، ولباسها مشمر حتى الخصر. أعطاها أنطونيو يده لتضغط عليها. كان أول رضيع رأى النور بنتا وكانت مقمطة بجانبها. كانت الرضيعة لا تزال تحمل بعض بقايا الأرض الإنسانية، وزيت الانفصام.

سمع نيكو بكاء الرضيع الثاني، سيفا يخرج من النافذة وينغرس عميقا في جسده. نهض ودخل، بخار دافئ يغمر البيت معلقا في الهواء. جاء أنطونيو يحمل رضيعا بين ذراعيه.

ـ إنه ولد. لقد وضعت ماريا زوْجا. مكتبة سُر مَن قرأ

دخل الأخوان إلى الغرفة، وكان ثلاثتهم صامتين. كانت ماريا فَزِعة مما أصابها من ألم، وما ينتابها من شلل أمام إمكانية حصولَ مزيد من المغص والتمزّقات. أمرت أنطونيو أن يأتيها بطست ماء دافئ وأن يضع نبات السّذاب ليغلي. عندما ازداد الولد، بكيت البنت، ثم توقّفت عندما كفّ عن البكاء بدوره. أصبحا متزامنَين. اندسّت البنت في صدر أمها، قاوم الولد في البداية، لكنه سرعان ما أخذ يخرّ حين اشتمّ رائحة الحليب،

وراحا معًا يشربان من أمهما.

وضعت ماريا صغيرَيها في المهد قرب السرير الكبير وطلبت من الرجلين أن يخرجا. غيّرت الأغطية، رفعت لباسها وجلست فوق الدست الكبير الممتلئ والمرشوش بنبات السذاب الذي يرتفع أريجه حتى السقف. كان حمّام المقعد يستجمع الخلايا التي تشتت من قبل. كانت ماريا تئنّ، وهي تنتظر أن تلتحم أنسجتها الممزقة.

34

كان نيكو يشتغل بحرارة، ومرح مستمر. عمّدوا الطفلين في المدينة، فسمّوا الولد أونوفري والبنت أنيزْيا. كلاهما يرتديان ملابس صفراء بين ذراعي ماريا. حينها تعرّفت عليهما تيزيكا، كما تعرّفت على سيسيل وماري.

كان تيموتييُو هو العرّاب، وغونسالينا، شقيقة ماريا، هي العرّابة.

كان أنطونيو يحمل التوأمين إلى أيّ مكان، يضعهما في عربة يدوية ويخرج إلى وسط حقل الذرة، حيث كان ظلّ الكوز يلطّخ قميصيهما. كانت ماريا تتركه يقوم بذلك، فيعود الصغيران إلى البيت أكثر نشاطا وأشد جوعا. وعندما كانت تعري نهديها لترضعهما، كان أنطونيو يبتعد. وكان يعلم بنهاية وجبة الحليب عندما يسمع تنهيدة الأم.

كان نيكو يأتي بقربة كبيرة من الحليب تعلوها قشدة صفراء تبتلعها ماريا خالصة. وأحيانا كان يجلب خنزيرا مذبوحًا من المزرعة، يُقطّع لحمه ويُتبّله بالثوم، والملح، والفلفل والأعشاب العطرية. يتركه في النقاع مدة يوم كامل وفي اليوم التالي يقليه في شحم الخنزير. يحتفظ بقطع اللحم في علب من عشر لترات يغطيها بالشحم الصلب. وكل يوم كانت ماريا تُخرج بملعقة خشبية بعض القطع التي تمنح الرز لونا ذهبيا،

تجعله لامعا وتفرق حباته. ثم تضيف إليه شرائح من الطماطم، شيئا من البصل والخيار. مرق بشحم الخنزير، ليمون، فلفل وملح. وبعد الزوال، أفوكادو وبابّايا مقطعين إلى شطرين، مع مسحوق سكر منثور فوق الجزء الناعم من الفاكهة.

قهوة طوال اليوم. ما إن يبرد الإبريق حتى يشرعون في تحضير أخرى. كانوا جميعا يحضرون القهوة؛ ماريا، أنطونيو ونيكو. وكان يعرفون من يحضرها من قدر حلاوتها؛ لأن لكل واحد طريقته في وضع مقادير السكر.

ذات أحد، بينما كان أنوفْري وأنيزْيا نائميْن، وأنطونيو يكشط نعل جزمته بسكين في القاعة، شعرت ماريا بلمس خفيف في رقبتها، بينما كانت تنثر مسحوق طلق على الملابس في دولاب الغرفة. كان نيكو يحضر القهوة، فلما اشتمّ أنطونيو رائحتها اقترح على ماريا تحضير حلوى بالمنهويت، يعدها بنفسه إن كانت ترغب في ذلك.

ـ يمكنك ذلك، لكن اترك المطبخ مرتبا ولا تستعمل كل الدهون لأنني سوف أصنع منها صابونا يوم غد.

ذهب أنطونيو إلى بيت المؤونة، أخذ بيضا، حليبا ومنهويتا حرّيفا. كان الماء يغلي فوق موقد النار. أضاف إليه نيكو سكرا كي يصير لبني اللون، أضاف البن المحمص في الصباح وأخذ الخليط إلى المجلى، حيث كان سيصفيه في مصفاة الإبريق. كان أنطونيو يستعمل جانبا من المجلى نفسه. كان واقفا فوق

المقعد حتى يكون في المستوى المطلوب، ويستعد لمزج عناصر السلطة في صحن. وأمامهما نافذة تطلّ على السدّ، وعبرها يُسمع بعيدا هدير الشلال، مستمرا، رطبا.

صبّ نيكو الماء الساخن، وسرعان ما تعالت رائحة القهوة. أوقف أنطونيو مهمّته ليرى بخار القهوة يتصاعد. وبينما كان نيكو يضع القدر على حافّة المجلى، أغمض أنطونيو عينيه حتى يتشبّع أكثر برائحة القهوة. حين فتح عينيه، لم ير أخاه، الذي لم يعد موجودا في المطبخ. وقف أنطونيو على طرف قدمَيه ليلاحظ الماء داخل المصفاة، لكنّه كان قد اختفى تاركا عجينة بُنّية على الجوانب. القدْرُ الفارغ لا يزال مسندا إلى المجلى، وماريا تغلق الدولاب هناك داخل الغرفة.

ـ ماريا؟ تعالي لتري، لقد سقط نيكو في إبريق القهوة.

تأخّرت ماريا كثيرا لتأتي. نظرا لاستحالة ذلك الحادث، لم تر أي استعجال لمعاينة تلك الحماقة. وبينما كان أنطونيو يطلّ من النافذة، راحت هي تبحث في بيت المؤونة، والفناء، والخمّ، والمستودع وحقل الذرة.

ـ هل ذهب نيكو هكذا، من دون أن يقول شيئا؟

ـ إنه لم يذهب، يا ماريا، لقد مرّ عبر المصفاة.

ـ لا تقل حماقات، يا أنطونيو.

ـ كان يُحضر القهوة، وحين صبّ الماء اختفى.

ـ لن يتأخّر كثيرا.

ـ لا تلمسي الإبريق، اتركيه كما هو حتى يتمكّن من العودة.

بعد يومين، جاء تيموتييُو يسأل لماذا لم يعد نيكو يأتي إلى المزرعة. فشرح له أنطونيو أنه اختفى داخل إبريق القهوة، لكن ماريا تدخّلت.

ـ إنه لم يختفِ في أي إبريق قهوة، خرج ولا نعرف أين ذهب.

ـ أين هو إبريق القهوة؟ هل هو هذا فوق المجلى؟

ـ نعم، إنه هناك منذ أول أمس.

نظر تيموتييُو إلى المصفاة حيث كان البن يابسا، وقد اصطبغ الثوب الأبيض بلون القرميد. ذهب أنطونيو وأحضر ملعقة من بيت المؤونة ثم سلّمها لتيموتييُو في يده.

ـ هيا حرّكْ دفعة واحدة...

غادر تيموتييُو مذهولا من اختفاء نيكو وهلوسات أنطونيو.

ـ غريبة حكاية اختفاء نيكو هذه، ربّما لاحق حيوانا وسط الغابة، وأصيب بجرح... اذهب وابحث عنه، يا تيموتييُو. أمرَهُ جيرالدو.

ـ وإبريق القهوة؟

ـ هذا كلام شخص أبله. أنطونيو لا يبرح البيت أبدا، وقد بقي وقتًا طويلًا مع الراهبتَين في المدرسة. وأنت ترى أن نيكو ليس متأخّرا ذهنيا مثل أخيه.

فخرج تيموتييُو لاقتناص نيكو.

35

اعتبرت جوليا أن قضية الرضيع قد انتهت. في اليوم الموالي، جاء تاديّو، من مفوضيّة الشرطة، إلى محطّة الباصات ليقول إنه لم تكن هناك من أخبار عن المرأة، ولم يتوصّل بأخبار أخرى بعد ذلك. نسيت القضية، فشدّها الحنين إلى ليلى، إلى رعايتها البعيدة، إلى الأواني المرتبة وإلى دُرَر فؤاد... إلى الحماية الخنوعة.

فكّرت في كتابة رسالة. كانت تعرف العنوان عن ظهر قلب. سطور قليلة تحكي فيها عن عملها، عن الغرفة التي تكتريها، عن الملابس الجديدة التي اقتنتها في وسط المدينة وعن القدّاس الذي وجدته أعظم من الكاتدرائية. لكنها لم ترسلها.

كانت دينورا منشغلة بابنَيها. أثناء رحلات القطار، كانت جوليا تصغي إلى الأمّ وهي تحكي عن همومها. أضحت تعرف كل شيء عنهما، وعن صديقتَيهما وعن لائحة الأمراض التي أصابتهما في الطفولة.

ابتهجت كثيرا يوم أهداها رئيس قسم النظافة علبة حلوى. رجل صارم لم يكلمها سوى يوم تعاقدوا معها على العمل، وكان يوجّه لها الأوامر عن طريق موظّفين آخرين. لا تغيير في الأوامر: تقطيع ورق النظافة، استخلاص النقود عند الباب، وإعادة الفكّة. جاء ليتحدّث معها بعد أن حصلت على علبة الحلوى.

ـ وماذا عن ذلك الرضيع؟

ـ ماذا؟

ـ الرضيع الذي أخذْتهِ من محطّة الحافلات؟

ـ هل علمتَ بالأمر؟ سلّمتُه لمخفر الشرطة.

ـ إذن، ارجعي إلى المخفر، وعودي إلى هنا مع الطفل.

في القطار، تجاهلت دينورا الأمر وفتحت قطعة حلوى بالنعناع. بنَفَس منعش، نفخت على زجاج النافذة ثم مسحته بسرعة بظهر يدها.

ـ سوف تتغيّر نوبةُ عملي بعد أسبوع. قريبًا، لن نقطع هذه المسافة معا.

بيد أنهما ستقطعان تلك المسافة عدة أيام أخرى.

ـ ألا تظنين أنه من المناسب أن نتحدّث مع تاديّو؟ لا بدّ أن أفونسو، رئيس مصلحة النظافة، يعرف شيئًا ما.

ـ لا أستطيع أن أتكلّف بأمورك مدى الحياة. عودي من حيث أتيت.

في اليوم التالي، رأتا أفونسو قادما من جهة الممر يتحاشى المسافرين، وسط الحقائب، والملاءات، والأغطية المطوية. ابتعدت دينورا عن جوليا واتجهت نحو أقصى الحمّام في

الطرف الآخر من المحطّة. فظلّت جوليا وحدها لتلتقي مع أفونسو.

ـ جوليا، اتبعيني.

ثم دخلا إلى قاعة صغيرة.

ـ نحن مضطرون لتقليص النفقات، لا يمكننا أن نحتفظ بك.

ـ ماذا؟

ـ أنت مُسرّحة. أنت بلا عمل. لماذا لا تعودين إلى قريتك؟ يبدو على محيّاك أنك تائهة في هذه المحطّة، وهذا منذ عدة شهور.

حتّى دون أن تخلع بذلة العمل الخضراء، اتجهت جوليا نحو منطقة دينورا في الجهة الشمالية من المحطّة.

ـ حياتك كانت سهلة للغاية! أيّ صعوبات واجهتِ أنتِ في حياتك؟ لا شيء. لا تعرفين حتى ما معنى كلمة «مشكلة». وصلْتِ إلى هنا بدينةً، سكنت في مدرسة الراهبتين وأويت في بيت عائلة غنية. حان الوقت لتتحركي يا جوليا. هيا، ابتعدي لأنك تعيقين باب الحمّام.

رجعت جوليا إلى النُّزل وأعدّت حقيبة دسّت فيها كلّ أغراضها، ثم عادت إلى محطّة الحافلات. استعلمت عن

الرحلات، فأخبروها أنه لم تكن هناك حافلات مباشرة إلى سيرّا مورينا وأن عليها أن تنزل أثناء الرحلة في مطعم على الطريق.

وضعت الحقيبة بين قدمَيها ورأت المناظر الطبيعة تمرّ في الاتجاه المعكوس ليوم وصولها، وضواحي المدينة الكبيرة تمتزج بخطّ الطريق المتواصل.

36

كان تيموتيُو يبحث عن نيكو منذ عدة أيام. أرسله جيرالدو ليبحث عنه في البلدة، وأخطر باختفائه الراهبتين الفرنسيتين اللتين بدأتا في تلك اللحظة صلاة ما بعد الظهيرة. في المدينة، كان القادمون من سيرّا مورينا يتحدّثون عن الحدث في الساحة.

ـ وماذا لو أنه ذهب إلى الجهة الأخرى من الوادي؟

ـ لن يتسلّى نيكو بمثل هذه الأمور، الآن وقد وضعت ماريا رضيعَين.

ـ بالضبط، هذا هو الوقت الذي يهرب فيه الرجال من بيوتهم. أتذكر أوتاسيلْيو؟ الرجل هرب لحظة الوضع ولم يره أحد بعد ذلك.

ـ أو أن أنطونيو كبر، أصبح رجلا فاستولى على ماريا.

ـ يُقال إن الأقزام لا يكبرون أبدا.

ـ من يدري، ربّما يكبر بين لحظة وأخرى.

ـ ربّما يكون قد كبر، قتل نيكو وأخذ الطفلين. ربّما يكون الطفلان من صُلبه.

ـ هذا ممكن.

كانت ماريا تغدق بحنان كبير على أونوفْري وأنيزْيا.

حركات بطيئة كي تغيّر لهما الملابس، والحفاظات الصفراء الدافئة التي تنظّفها بصبر وتنشرها فوق الحبل تحت أشعّة الشمس المُعقِّمة. تُرضعُ كل واحد من الصّبيَّين في جهة خاصّة به، أنيزْيا في النهد الأيمن، وأونوفْري في النهد الأيسر. فيمتصّان الحليب مثل محْجمَين بفميهما القويَّين.

كان أنطونيو ينظّف المجلى دون أن يحرّك الإبريق الذي استعمله نيكو لتحضير القهوة. أونوفْري ينام وأنيزْيا تتجشّؤُ. وفي الأعلى، كان زغب حقل الذرة يرسم دوائر تتمدّد من الوسط نحو الهامش فيما يشبه لولبا متزغّبا. الدجاجات ترفرف بأجنحتها كي تنفلت من الكلاب، وتحمي الكتاكيت السمينة الكسلانة. الخنزير يتنفّس تنفّسا قصيرا، مستلقيا في الزريبة. قيظ، ضغط جوي، مطر يهدّد بالسقوط.

جاءت أُمّ ماريا تحمل مؤنا، وجلب تيموتيُو أدوية أرسلتها تيزيكا، علاجات خاصّة بالنساء في فترة النفاس وما بعد الوضع.

ـ تحدّثي معه يا ماريا.

ـ كيف؟

ـ انظري داخل الإبريق واطلبي منه أن يعود.

ـ أنطونيو!

ـ دعيك من هذا، سوف أطلب منه ذلك لاحقا.

بعد أن غسل الأواني، غادر أنطونيو المطبخ وذهب نحو البوّابة، حيث كانت مياه السد تبدو أكثر اتساعًا عبر النافذة من دون إطار. اقتربت ماريا من حافة المجلى. قطعة الثوب صدئة من الكافيين، وغبار البنّ الجافّ يتفتّت. وضعت الماء ليغلي في الغلّاية، ثم صبّت بحذر خيط ماء ساخن على المصفاة. وبينما كان الدخان يتصاعد، ارتفع صوت خفيف، مثل خيط رقيق، من تلك الخيوط التي تشدّ الكراكيز واقفة. لم يكن رائحة، لا، بل صوتا. صبّت مزيدا من الماء على المصفاة، فظنّت أنها سمعت صوت نيكو في قعر المصفاة، واهنا وضعيفا. قرّبت أذنها من حاشية الإبريق لتسمع بشكل أوضح، كمن يصغي لأصوات البحر في محارة.

حلّ المطر، فبردت الأرض، والقهوة وقَدَما ماريا. عندما عاد أنطونيو من البوّابة كانت قبّعته تقطر، وماريا تجلس مخفضة الجفنَين، تنّورتها متجعّدة ويداها تحت ساقيها.

ـ ما بك ماريا؟

ـ أنا حامل. وقد شعرتُ بدوخة، كما حدث يوم كنت حاملا بالتوأمين.

37

صباح منتعش بفعل المطر الذي سقط ليلا. استغرب أنطونيو لعدم خروج ماريا من الغرفة. أزاح ستار الباب فرآها جامدة، المُلاء تصل إلى ركبتَيها، والطفلان فوق بطنها العاري، يلوحان بالأيادي والأقدام.

ـ ماريا؟

لم تجبه، فذهب يبحث عن خضراوات في الحديقة. يومها كانت أم ماريا على وشك أن تصل في زيارتها الشهرية. حضّر أنطونيو بنفسه رزا، وفاصوليا، مع شرائح لحم بالطماطم والخس. لقد سبق لماريا أن بقيت هكذا، تغلق على نفسها داخل البيت. من دون أي نشاط، لا تجيب من يكلّمها. أمّا اليوم، فلها مسوِّغ كافٍ: أين هو نيكو؟

ذهب أنطونيو إلى المستودع يبحث عن شظايا الخشب من أجل موقد النار. صعد سلّما قصيرا، ثم أزاح المزلاج وفتح الباب الخشبي العريض. وهناك ظهر نيكو فوق التبن، يغفو، مسترخيا، منفرج الساقين، والقبّعة تغطي وجهه.

ـ ماريا! لقد عاد نيكو، إنه في مستودع التبن.

تركت الطفلين وسط الوسادات وسبقت أنطونيو، سريعة ولاهثة.

ـ أين كُنتَ؟

ـ كنتُ نائما. أجابها نيكو، ثم جلس، وأخذ يخرج من المستودع دون عجلة من أمره، معرّضا وجهه للضوء.

ـ وماذا أصابك في عينَيك؟

ـ ماذا بهما؟

ـ إنهما داكنتان.

عادت ماريا إلى البيت، لكنّها سرعان ما رجعت.

ـ هل كنتَ في الجهة الأخرى من الوادي؟

ـ هل جُننتِ؟

كان أنطونيو يتّكئ على المعول، ومرفقه على خصره.

ـ عيناك، يا نيكو، إنهما داكنتان معا.

عينا نيكو، الزرقاوان مثل عينَي أمّه، كانتا بلون خشب الأبنوس الناعم، داكنتين لدرجة أنه اختفت عنهما حاشية البؤبؤ ونفق القزحية. وقف أنطونيو على طرف قدمَيه، تفحّص وجه أخيه ثم وضع المعول فوق كتفه.

ـ البن هو الذي لطّخ عينيه.

دخل ثلاثتهم إلى المطبخ، وأخذ أنطونيو المصفاة ليغسلها.

ـ خذ حمّاما يا نيكو، حتى تزيل عنك هذا الغبار.

شعرت ماريا بآلام حادّة عند أسفل بطنها، ثم في بطنها. تلوّت مثل دودة فوق الأرض. رفعها نيكو بين ذراعيه ووضعها فوق السرير إلى جانب الطفلين اللذين كانا نائمين.

ـ اخرج من الغرفة يا نيكو. طلبت من زوجها.

أطاع أمرها. طردت ماريا من جسمها شيئا لا هو من أعراض الوضع ولا هو من علامات الحيض، شيئا بين هذا وذلك. كان شيئا صغيرا جدا، وَزَغة. منكمشةً في زاوية الغرفة، لفّت الدم الكثيف المتجمّد في حفاظة صارت بيضاء من أشعة الشمس. كانت تتصبّب عرقا باردا. دخل أنطونيو يحمل فنجان من نقع البولْدو[1]، وهو يظن أنها تعاني من عسر في الهضم.

ـ حدث أمر سيّئ، يا أنطونيو. لقد فقدت الطفل.

ـ سأتلو صلاة ربّانية.

عاد نيكو إلى الغرفة، وكان يشعر بحاجة إلى النوم. جلس على حافّة السرير. عاد أنطونيو إلى البوّابة، قفز فوقها وراح يتأمّل المنظر الطبيعي الواسع. وصلّى.

أخذت ماريا الصُرّة، مرت أمام أنطونيو ونزلت عبر منحدر الجبل، تمشي واهنة الخطوات. كانت قد وضعت الحافظة

---

(١) البولْدو شجرة تكثرُ في تشيلي على وجه الخصوص، وتستعمل أوراقُها في تحضير مشروبات ووصفات أخرى ذات خصائص علاجية. (المترجم)

داخل خرقة جافّة، فتمدّدت بقع الدم فوق مساحة الثوب. بلغت الطريق المتربة القديمة فلاحَ لها السدُّ على بعد بضعة أمتار. تقدّمت نحو الضفّة، انحنت بجسدها حتى لمست الصّرةُ السطح، فأرخت أصابعها. انفتحت الصّرة، طفت فوق السطح حتى استسلمت لثقلها. ومن الماء، اقْتنصتْ نظرةٌ ذلك الانغمار وعجّلت به.

38

كانت الحافلة تقترب من المطعم الذي كان على جوليا أن تنزل عنده. خفّف السائق من السرعة، منتظرا أن يأتي حجمٌ ما من داخل الحافلة، ظلُّ تلك المسافرة المستعدة للنزول. ولمّا لم يأت أي أحد، ظنّ أنها كانت تنام أو ربما نسيت، وهو لا يستطيع أن يوقف الحافلة ويمرّ وسط المسافرين ليوقظها، فتابع طريقه. استيقظت جوليا عند نهاية السير، وخرجت من نومها الدافئ، فوجدت نفسها في محطة باصات صغيرة.

ـ كُنتِ نائمة في الوقت غير المناسب أيتها الفتاة. عليك أن تقتني تذكرة عودة.

أكلت جوليا سندويشا وظلت تنتظر جالسة فوق حقيبتها. كان معها من المال ما يكفي لأداء تذكرة نصف رحلة.

ـ سأدفع نصف ثمن التذكرة. هل يمكن أن تتركني في المطعم الذي يقع عند منتصف الطريق؟

عادت لتجلس في المقعد الذي كان ما يزال دافئا، وحاولت أن تغفو كي تنام من جديد. لقد قرّرت أن تعود، وهي ليست بحاجة لتتظاهر بذلك. كانت سيرّا مورينا منعطفا خطيرا، دورة طريق، طريقا مختصرا لم يعد له معنى. نيكو وأنطونيو، بعد أن كبرا، لن ينظرا إليها، كما في الطفولة، بعين الامتنان.

توقّف السائق، هذه المرة، وانتظر أن تمرّ جوليا أمامه تحمل حقيبتها، ولم يقل شيئا. أغلق الباب من جديد وقرّر أن يكون صارما ساعة الحساب. عند الوصول، عليها أن تسدّد بقية ثمن التذكرة. لكن، في محطّة الوصول، نزلت فوق الرصيف في حالة من التذلّل حتى إن السائق تخلّى عن مطالبتها بالأداء. ذهبت حتى وصلت إلى حمّام دينورا، فوجدتها في الوضع نفسه يوم رأتها لأول مرة، تنسج مركّزة عينيها على الثقوب التي كانت تملأها بالقطن.

ـ سلام.

ـ ألم تذهبي إلى مدينتك؟

ـ لم أتمكّن من ذلك.

عادت دينورا إلى نسيجها، تلاحظ النقود التي تسقط في العلبة الورقية عند باب الحمّام. لم يكن الباب يتوقّف عن الصرير من دخول الناس وخروجهم. جلست جوليا فوق مقاعد الانتظار، تحت الساعة الكبيرة حتى لا ترى كيف كانت الساعات تُكمل دورة العقارب من اليسار إلى اليمين.

لم تضطرب حين لاحظت وسط عدة نساء تلك السيّدة ذات اللباس البنفسجي، وهي ترتدي الآن لباسًا أخضرَ. رأت كيف اقتربت المرأةُ من شابّة مقرفصة، كانت تغيّر سروال طفل صغير بينما رضيع ينام في عربة أطفال. دخلت صاحبة اللباس الأخضر في حديث ودّي مع الشابّة، وراحتا تضحكان معا. قالت شيئا

ما للأم جعلها تنهض وهي تحمل الطفل الأكبر بين ذراعيها ثم تتقدّم سريعة نحو السلاليم المؤدّية إلى الأرصفة. كانت المرأة ذات اللباس الأخضر تدفع عربة الأطفال، وتساعد الأمّ المثقلة بالأحمال. كانتا معا تسرعان وتخفّفان السرعة بالاندفاع نفسه، وجوليا ترقبهما بانتباه. ومن موقعها، كانت ترى كل شيء من دون حاجة لتُدير عنقها.

السيدة الأنيقة، بابتسامتها المهذّبة، غيّرت فجأة مسار عربة الأطفال بينما كانت الأُمّ تنزل السلم الآلي دون أن تتمكّن من الصعود مرة أخرى؛ لأن أشخاصا آخرين كانوا يمشون وراءها وهم يحملون حقائب. دفعت المرأة عربة الأطفال حتى بلغت الحمّام ومنه خرجت ترتدي لباسا أبيض، تحمل صرّة بين ذراعيها ثم اختفت. لم تحرّك دينورا ساكنا. اشتدّ الجوع بجوليا، فغيّرت وضعيّتها فوق المقعد.

39

ذلك الجنين الذي ألقت به ماريا في الماء نزل حتى بلغ قاع السدّ. أمّا الثوب الذي كان ملفوفا فيه، فقد انتشر وسبح فوق الماء نحو مكان مجهول. اقتربت الأسماك من الجنين، لكنها لم تشعر برغبة في أكله، وظلّت تسبح في دوائرَ ترقُب الشكل الآدمي. ذاب دمُ الصرّة في جيرالدينا ذوبانا قويّا حتى إن أدنى ذرة منها التحمت بأدنى ذرة فيه.

كانت المدينة الجديدة شبكةً من الخيوط الممدودة فوق الأعمدة في انتظار الضوء الذي سيأتي من الحضارة، من المياه المحصورة، من غضب المياه السجينة. أثناء ذلك، وفي أعالي سيرّا مورينا، ركّبت ماريا مصباحا في القاعة. فتح نيكو النافذة على مصراعيها في انتظار أن تشتعل المدينة هناك بعيدا في الأفق. وأدار الثلاثة وجوههم نحو الريح الغربية.

بدأت جيرالدينا تتخذ شكلا فسفوريّا. كانت سائلة جدّا لدرجة أنه، من أعلى، كان يمكن رؤية خيط لامع تحت المياه يواصل طريقا غير منتظرة لا تُقاومُ. كانت قد ابتلعتها أنابيب محطّة توليد الكهرباء، آلة التقدّم.

ـ اضغط على الزّر، يا نيكو، لقد اشتعلت مصابيح المدينة.

كانت ماريا تضحك وحدها، فالمدينة، هناك في الأسفل، كانت باقة من اليراعات. وضع نيكو أصبعه على الزّر، وضغط.

نفذت جيرالدينا إلى داخل المصباح، ورفرفت حول لولبه، مزهوّة. شعّ الضوء في كل أركان القاعة، ومنح قطع الأثاث ظلالا خفيفة. أطفأت ماريا الشموع، وصفّق أنطونيو بيديه وهو ينظر إلى السقف.

40

الحادية عشرة مساء، تقريبا. كانت دينورا قد عادت إلى بيتها، وجوليا ما زالت جالسة على الكرسي نفسه في المحطّة، بعد أن تناولت سندويشا ساخنا. لم ترها أية زميلة من زميلات العمل. كان هناك رجل تقدّم نحوها. غافيةً، لم تنتبه إلى أنه كان قريبا منها.

ـ جوليا؟

رسم ميسْياس ابتسامة عريضة على وجهه وفتح ذراعيه. كان فمه يفوح برائحة النعناع وصدرُه بعطر ماء الكولونيا.

ـ صحيح؟

ـ نعم.

أمسكها من يدها وخرجا معا.

ـ سوف تنامين في غرفة عندي في أقصى البيت. لا يمكن للسيدة ليلى أن ترى وجهك، ولا حتى لوديريا.

ـ إنهما لم تبحثا عنّي حتى.

ـ ظنّتا أنك مع أسرتك أو في الميْتم. لكن لوديريا علمت أنك لم تكوني عند الراهبتَين، فانشغلتُ للأمر.

عند ميسْياس، تمدّدت جوليا فوق فراش من دون غطاء،

وكان ثمة فأر يقضم شيئا صُلبا في ركن ما. كان محل البقالة قريبا من الكنيسة، التي كانت بعيدة عن بيت ليلى. سوف تمرّ لوديريا من هناك لا محالة بعد أجل أقصاه أسبوع واحد. كان ميسْياس قد ترك المحلّ بين يدي مستخدم كي يذهب إلى سيرّا مورينا أو أيّ مكان آخر بحثا عن جوليا. ليلتها، نام هادئا؛ لأنه لم يضطرّ حتى لمغادرة المدينة؛ لأن الشابّة كانت في منطقته.

ـ لا أريد أن تراني لوديريا.

ـ ليس بوسعي أن أضمن هذا الأمر.

لاحظ ميسْياس تعب الفتاة، كما رأى ذلك الطفح الجلدي الذي ظهر أحمر منتفخا على ذراعها. لم تكن تعرف ما هو. ربّما يكون بسبب الخنزير النيّئ الذي أكلته في محطّة الحافلات...

ـ أنت واهنة، سوف أحضر لك مُنشّطا.

بعد ذلك، قضت جوليا يوما كاملا ترتّب الغرفة الضيّقة. وضعت في ركن علب الفاصوليا المفتوحة وراكمت علب الزيت في ركن آخر. هكذا، ستكون الفئران التي تنام في جحورها أكثر تكتّما خلال وجبة أكلها القادمة. في الليلة الموالية، جاء ميسْياس يطرق باب غرفتها قبل أن يذهب للنوم. فتحت له الباب، فلمس الرجل في وجهها حيوية مكان رُتِّب من جديد.

41

كان أنطونيو يقضي يومه يشعل المصباح ويطفئه، ينظر إليه كيف يكون ولا يكون.

ـ هل ستقوم بهذا طيلة اليوم؟ دمدمت ماريا وأونوفْري بين ذراعيها.

ـ إنها نجمة داخل البيت، الشيء نفسه.

ـ أنا بحاجة لحطب موقد النار.

ـ قال نيكو إنه سيجلب حطبًا عندما يعود من بيت جيرالدو.

في تلك الفترة، كانت جيرالدينا قد استرجعت استقلاليتها وتفكيرها المنطقي. من المصباح الذي كانت ملتفّة حول لولبه، سمعت اسم ابنها. كانت ذات حساسية لما حملتْه في أحشائها، فتفتّتت كي تخترق الزجاج الرقيق. امتزجت بهواء القاعة، دون أن يستنشقها أي واحد من الحاضرين. فالموادّ تختلف حسب طبيعة الأعداد، وهي كانت عددا فرديّا، أما الهواء، فكان زوجيا. الرئتان تميّزان الأعداد.

حُرَّةً، كأنها لُخمة بحرية تختبئ وسط الرمال، راحت تنزل حتى التصقت بالأسمنت البارد؛ فقذفت بها الصدمة الحرارية بين قدمَي أنطونيو.

عند قدم شجرة الجابوتيكابييرا[1] كان هناك جذع خشبي قديم، يتخذ منه أنطونيو مقعدا يستمتع فوقه بأكل الفواكه التي يملأ بها قبّعته. كانت يداه وحافة قميصه ملوّنة بسواد الحبّات التي تنفجر داخل فمه مثل ألعاب نارية.

وبينما هو يتخم نفسه بما لذّ وطاب، كانت جيرالدينا تستريح وديعة بين الحبات الصغيرة الملتصقة بالجذوع. اشتكت ماريا من الشجرة لنيكو. عندما تثمر الشجرة، كان أنطونيو يقضي اليوم بكامله هناك بدل أن يساعدها في أشغال البيت.

نيكو، عيناه بحجم الثمار ولونها، كان يستعيد شيئا فشيئا فرح الأيام الخوالي. لم يسأله جيرالدو ولا تيموتيُو عن اختفائه. كانا يظنان أنه ذهب إلى الجهة الأخرى من الوادي، مكانٌ إذا ما ذهب إليه المرء ورجع، يعود مختلفا. لم تقل ماريا شيئا عن مصفاة القهوة، وكتم أنطونيو السرّ. وحين سألت تيزيكا نيكو عن سبب تغيّر لون عينيه، أجابها أنه لا يعرف لماذا.

ـ كانت عيناك أجمل ما فيك يا بُنيّ.

ـ ألا تحبينني هكذا؟

ـ إنني أحنّ إلى تلك العينين الممتلئتين، أما اليوم، فأصبحت بدرا كاملا.

---

(١) وتسمّى -أيضا- «شجرة العنب»؛ لأنها تعطي ثمارا دائرية الشكل تشبه حبّات العنب. وهي ثمار سوداء ريّانة تلتصق بالجذع. (المترجم)

كان نيكو بدوره يحنّ إلى ذلك اللون الذي لم يره قطّ بنفسه، بل شعر به من خلال الآخرين. فيما مضى، كان يرى اللون الأزرق في فرح من يتحدثون إليه، لأنه لا أحد يحترس من الصفاء. أما مع عينيه الداكنتين، فكان يمتصُّ من يقترب منه من الناس، فيجثمُ على نفسه ظلامٌ من ينظرُ إليه.

42

منذ مدة والراهبتان الفرنسيتان ترغبان في زيارة سيرّا مورينا، خصوصا بعد أن أصبح أنطونيو يعيش هناك. كانت تيزيكا، التي لم تكن تعرف المنزل بعد بناء محطة توليد الطاقة الكهربائية، هي من اقترحت الذهاب إلى هناك وأخذ بعض البسكويت الطري بالقشدة.

ذهبن على متن عربة تجرّها الخيول ويقودها مستخدم من المدرسة. وضعت الفرنسيّتان على رأسيهما شالين مُضمّخين بالعطر. جلست تيزيكا بينهما، وراحت تشمّ عطر الباتْشولي.

عند البوابة، كانت ماريا تُصيخ السمع للضجيج الذي يمكن أن يتّجه نحو الأعلى لأنه لم يكن في الجوار أي طريق آخر يسلكه الناس للتجوّل. تنهّدت ماريا عميقا وهي تتعرّف النساء الثلاث. بدأ قلبها يخفق بسرعة، وهي تفكّر في أشياء فظيعة من قبيل الموت، والفيضان، أو في نهاية شيء ما. كانت تؤمن بالعداء، الذي إن لم يكن ينبع من النساء العجائز، يمكن أن يأتي من الخبر الذي يحملنه.

نزلت الثلاث عند البوّابة قبل أن تُفتح. قبّلَتهن ماريا على الخدود وأعلنت تيزيكا أنهن قد أتين في زيارة مجاملة. كان أنطونيو يختار حبّات الفاصوليا في القاعة، وقد وضع الغربال على فخذه، وراح يفصل بأصابعه الغليظة الحبّات المنتفخة عن

الحبّات الناعمة. رأى سيسيل وماري، فنهض، وضع الغربال فوق المقعد وخلع قبّعته.

ـ سلام ابني. صاحت ماري.

ـ ادخلن، سأحضر القهوة. اقترح أنطونيو.

مشيت الثلاث في صفّ حتى بلغن المطبخ. جلسن فوق المقعد الواحدة قرب الأخرى، وتحت النافذة كان الضوء يسرّح شعرهن المشدود بالملاقط. ذهبت ماريا تبحث عن التوأمين في الغرفة لتريهما لهن، لكن أونوفْري وأنيزْيا، اللذين كانا يحاولان الوصول إلى الأرضية، كان يُفدْفدان بأرجلهما في أحضان العجائز. كان أونوفْري يريد أن يقبض على يد أنيزْيا، وكلاهما في حضن مختلف، يحاولان أن يلتقيا بأياديهما.

كان نيكو يشتغل في مزرعة جيرالدو، ولم يكن على علم بقدومهن. انصبّ كل اهتمامهن على أنطونيو، فلم تتوجّها بالكلام تقريبا إلى ماريا. وحدها تيزيكا كانت حريصة على تقدير حفاوة استقبالها.

ـ إنهما قويان معا!

ـ لقد كبرا كثيرا. أجابت ماريا.

ـ نعم، إنهما كبيران. قالت سيسيل.

صعد أنطونيو فوق مقعد أنهكه بقدميْه، جوانبه عالية

ووسطه مقعر. رمى الحطب في النار وراح يتسلّى بالشرارت المتطايرة. كانت سمنته تزداد والقعسُ يستفحل. وهو منحنٍ على موقد النار، في الوضعية نفسها، ظهره مقوّس مثل سلةٍ، كان يمكن لقِطّ أن ينام فوق كليتيْه.

كان عليهنّ أن يمضين الليلة هناك؛ فبعد ستّ ساعات من السفر، لم تكن هشاشة السنّ تسمح بتحمّل رحلة العودة. مضت الظهيرة ثقيلة وهادئة. كانت الراهبتان ترقبان أنطونيو وهو يغسل الأواني، ينشر الغسيل فوق الحبل، ويشدّ الحفاظة من طرفها إلى عود قبل أن يتركها تسقط فوق الحبل. كانت تجفّ هكذا، ملتوية ومتراكمة. وكذلك كان ينشر ملابس ماريا، وقمصان نيكو، دون عناية، كيفما نزلت فوق الحبل.

اختارت ماريا ديكا وذبحته جالسة قرب صهريج الماء. ذهب أنطونيو ليجمع شيئا من البصل واليقطين، غسل الرّز وغمس عدة رؤوس من الثوم في شحم الخنزير لتحضير الفاصوليا التي طهاها يوم البارحة. كانت ماريا تحرك القدور. كان أنطونيو يرج التوأمين، كل واحد مرة. سخّن الماء ليُحمّمهما، بسط فوطة فوق سرير التوأمين، ووضع الملابس النظيفة جانبا. كانت أنيزْيا ترش الماء خارج الطست بينما كان أونوفْري يشرب الماء وهو يقبض عليه بيده. ألقى أنطونيو داخل الطست ماء الترنجان ليعطّر الماء ويهدئ التوأمين. أمّا ماريا، فقد احترق القرعُ الذي كانت تُحضّره.

وصل نيكو، وجد في الخارج الرجل العجوز الذي جاء يقود العربة فدعاه لتناول العشاء. أكلوا تحت ضوء الشمس. كانت البطون، أكياسٌ اعتادت على الأكل في الموعد، تلتهم العجائن الساخنة المحضّرة بالخضر، والدجاج والفاصوليا.

في المساء، طلبت سيسيل من أنطونيو أن يحضر لها كأس حليب. كان المصباح يضيء المطبخ، والعجائز الثلاث فوق المقعد، جالسات بالطريقة نفسها.

ـ إنه دافئ. قال أنطونيو وهو يمدّ إليها الكوب.

ـ ألم يغْل؟ سألتْهُ سيسيل.

ـ كلّا. قال نيكو متدخّلا. مثلما حدث مرة في بيت جيرالدو، أليس كذلك، يا تيزيكا؟

نامت الثلاث في غرفة أنطونيو، الذي نام فوق الأريكة. اتخذن لأنفسهن موضعا للنوم؛ فنامت الراهبتان فوق سرير تتبادلان موضع الرأسَين والأقدام بينما استلقت تيزيكا فوق فراش قرب الباب.

ـ لم يكن من الضروري أن نأتي جميعا، تيزيكا وحدها كانت تستطيع أن تحمل لنا أخبار العائلة.

كانت ماري غير مرتاحة في هذا البيت من دون أواني مزخرفة ولا صور للمسيح. بيتٌ لا يتوفّر على غرفة حمّام خاصّة، لا تُقدّم فيه تحْليَة لذيذة، ولا شاي مع البسكويت.

ـ غدًا نأخذ معنا أنطونيو، لا يمكن أن نتركه في هذا الوضع. إنه رجل، مع أنه قزم. وأفظع ما في الأمر، أن ماريا تفتقر للشخصية، ونيكو لم يعد هو نفسه.

انكمشت تيزيكا تحت الملاءة، ولم تكن منزعجة تماما من الزيارة أو أن تتناول طعامًا لم تحضره بنفسها. عند الفجر، سمعت صرير الباب، وكانت تعرف ذلك الإيقاع، فارتدَت ملابسها والتحقت بنيكو.

ـ سوف تأخذ الراهبتان أنطونيو إلى المدينة.

ـ لن تأخذاه بأيّ طريقة. أنطونيو لم يعد طفلا.

عادت تيزيكا إلى الغرفة على رؤوس أصابع قدمَيها. لم تنتبه الراهبتان إلى أي شيء؛ لأنهما كانتا تغطّان في نوم عميق جرّاء التعب ورجّات العربة. لكن السائق، الذي كان ينام في الأريكة الأخرى، قبالة الأريكة التي كان يشخر فوقها أنطونيو، انتبه لذلك. رأى ظلّها واستدار نحو الجهة الأخرى. في الصباح الموالي، استيقظت ماري باكرا.

ـ أنطونيو، اجمع حقائبك لتعود معنا، سيكون هذا أفضل للجميع.

ـ لا يمكن أن أترك ماريا.

ـ بيتٌ فيه امرأة ضعيفة، يسود فيه الشرّ. هنا، حتى الحليب لا يغلي.

كانت جيرالدينا تستمع لكل شيء تحت مائدة المطبخ، وذهب أنطونيو ليضع الحليب فوق موقد النار.

ـ سأغلي لك الآن إناء حليب يا سيدتي.

سمعت ماريا كل شيء من غرفتها. حزينةً، نظرت إلى نيكو تبحث عن سند لديه بينما كان ينتعل جزمته ليتوجّه إلى المطبخ.

ـ تعالوا وانظروا. هناك فقاعة ترتفع.

ازدحمت النساء الثلاث عند حافّة موقد النار. وفي القِدر، برزت ثلاث فقاعات. كانت جيرالدينا نفسُها هي من تتفاعل بقوة مع درجة الحرارة العالية، تتلوّى كما لو أنها ترقص الهولا هُوبْ. هواءُ الفقاعة.

43

أرسل جيرالدو تيموتييُو ليبحث عن إنييْدو، الذي اختفى منذ بناء محطّة التوليد الكهربائية. ذكرت تيزيكا أن إنييْدو كان واحدا من العمّال الذين عرفوا جيرالدينا، كما ذكرت أنّ هذه الأخيرة كانت تكن له التقدير كما كان والدها يكنّ له الاحترام. وتحدثت -أيضًا- عن محاولة إعادة أنطونيو إلى المدرسة. لم يكن لجيرالدو رأي في الموضوع، ولم تكن تهمُّه كثيرا حياة القزم. أخذت تيزيكا تتكلّم كثيرا منذ أن عادت من سيرّا مورينا. كانت تتذكّر الجيران القدامى، الأموات والأحياء، وتفكّر في قبرها الذي سيأتي.

ـ يوم أموت، ضعني بجوار أمّك، يمكنك أن تلقي بي في...

ـ أحضري لي ماء بسرعة، ونادي تيموتييو، أريد أن أوجّه له أمرا.

أعدّ الشاب حقيبة ملابسه، ووضع فيها نصف فطيرة وقنينة من القهوة.

ـ سوف تقطع سيرّا مورينا، تذهب إلى الجهة الأخرى من الوادي وتعود لي بإنييدو. نيكو لا يقول شيئا، لكن هذا الوقح وصل إلى هناك.

ـ ولماذا لا يذهب هو مكاني إن كان يعرف الطريق؟

ـ يمكن أن يتيه مرة أخرى، أما أنت، فستتيه لأنك رعديد. نيكو في حالة ذهول تام، كيف تريده أن يُعيد إنييْدو؟ كان قليل الكلام، أمّا الآن، فلم نعد نسمع صوته.

ـ ربما ضاع صوته في إبريق القهوة.

ضحكوا. سمعتهم تيزيكا فتذكّرت الحليب الذي غلى دون أن تظهر قشدة فوق سطحه.

خرج تيموتييُو صباحا. وصل عند قدم جبل سيرّا مورينا، صعد، مرّ أمام بوابة نيكو وتابع سيره. من الأعلى، كانت البلدة ترتسم بعيدة هناك في الأسفل. برج الكنيسة الجديدة، ومنزل جيرالدو الواسع. وانطلاقا من تلك النقطة، لم يكن هناك غير درب واحد، عبارة عن خط رقيق. كان لا بدّ من متابعة الطريق على صهوة الجواد الذي تسوطُه أغصان الشجيرات.

أخذ تيموتييُو يشذّب الأغصان اليابسة بالمنجل حتى لا تمزّق ملابسه ولا تخدش جلد الفرس. أدار ظهره للمدينة التي اختفت وراءه، وبدأ ينزل. جذعُ الرجل مستقيم، وظهر الدابة مقوّس. وأخذ ينحرف، آملا أن تبرز أيّ إشارة في الطريق.

أصبحت الأدغال أكثر فأكثر كثافة، وكان الضوء ينزل بتركيز أكبر فوق الأرضية، وعلى الجذور الضخمة وبذور الأشجار التي لا تزهر. توقّف الحصان دون أن يأمره أحد بذلك، فترجّل تيموتييُو. مشى ثلاث خطوات، أزاح بعض الأغصان ودخل في فسحة، لكنّها كانت فسحة معلّقة في الهواء. كانت تقع

على شفى هوّة. انبطح على الأرض ونظر نحو الأسفل. كان ثقل الجسد ملتصقًا بالأرض، فكادت تخونه شجاعته. لمح الطريق؛ كانت الفسحة تنفتح على شلال شاهق ومورق. أدرك أنه لو التفّ حوله يمكنه أن يصل إلى قاعدته ومن هناكَ يستطيع أن يعبر الوادي.

عاد أعقابه، وحين وصل إلى القاعدة تابع سيره فوق أحجار أقل نتوءا، أوثق الحصان في جذع شجرة ومرّ خلف ستار أبيض من الماء المتجمد، الذي لم تعد به نقط غليظة، بل يسقط بصعوبة رذاذ على شعر ذراعيه. لمح في صخرة ما فتحة مدورة، انحنى ودسّ فيها رأسه ثم ذراعيه وساقيه. وكلما كان يتقدّم، كانت الفتحة تتّسع، وتتحوّل إلى قاعة فسيحة وعالية. بقي شلال الماء في الطابق الأعلى. وهناك كان إنييْدو، جالسا بشعره المشعث وجلده ذي اللون الفخّاري.

مرّ تيموتييُو أمام إنييْدو دون أن يتوقّف، كما يقتضي ذلك الفضول الجغرافي. كان الضوء الحارق يأتي من الشمس، التي كانت عند الفتحة الرئيسة من الكهف. وكانت هذه الفتحة تؤدّي إلى هوّة أخرى تشكّل بدورها جدارًا يحدُّ واديًا آخر. وكانت الجهة الأخرى من الوادي واديًا آخر.

44

علم نيكو أن تيموتيُو ذهب يبحث عن إنييْدو. أخبرته بذلك تيزيكا، التي استغربت هذا الاهتمام المفاجئ بالأمر. ربّما يكون جيرالدو على علاقة ببنت إنييْدو، التي صارت امرأة الآن؟ ربّما تكون هي من أمرته بإعادة والدها، أو رفاته على الأقلّ كي تدفنه بالقرب منها، تعرف مكانه وتتلو صلاة على روحه. وافقها نيكو الرأي. لقد كان ذلك هو السبب الوحيد كي يستغني جيرالدو عن عامل مثل تيموتيُو، ويرسله إلى الجهة الأخرى من الوادي.

ـ هل كنتَ هناك يا نيكو؟

ـ كلا. كنتُ نائما في المستودع.

ـ وهل رأيت إنييْدو؟

ـ لم أر أي أحد.

ألحت تيزيكا تسأل نيكو عن اختفائه، وكانت هي الوحيدة التي يسمح لها بذلك الحق. لكن نيكو لم يكن ينبس بكلمة، وما إن يقل لها شيئًا، حتى يسارع لنفيه كي لا يخلق لديها انتظارا.

كان نيكو عائدا من مزرعة ريّو كْلارو، التي أصبحت الآن تبعد مسافة ساعتين عن المزرعة السابقة. كان أنطونيو يجلبُ من الغرفة أونوفْري وأنيزْيا. بدأ الاثنان يمشيان منذ بضعة أيام،

على أرجل مترنّحة، يضعان باطن القدم كلّه على الأرض. بعد أن حمّمهمًا، ووضع مريلة صفراء على صدر أونوفْري، وأخرى بيضاء على صدر أنيزْيا، جلس فوق الأريكة، وضع توأما عند كلّ جانب، وظلّ ينتظر نيكو. أخرجت ماريا من إحدى العلب قطعا من لحم الخنزير المقلي في شحم هذا الحيوان. كان القدر الساخن يُذيب الشحم ويسخن اللحم الناعم. كانت هناك قطعتان من حلوى الموز تبردان في النافذة، ويتصاعد بخارهما الدافئ نحو الطيور. كان نيكو قادما عندما رأى وركَين يتحرّكان قرب البيت، أكثر عرضا من وركَي ماريا، وأكثر علوّا من وركَي أنطونيو. لكنهما كانتا اثنتَين ويرتديان تنّورتَين.

امرأتان متطابقتان، توأمان، عجوزان متشابهتان، كانتا تسرقان الحلويات. وضعاها، مع الصينية وكل شيء، داخل كيس. دون أن تنتبها لنيكو، اختفيتا وولجتا حقل ذرة فلم تعد تظهر هناك من أوراك.

دخل نيكو، ترك القبّعة فوق الأريكة التي كان يجلس فوقها أنطونيو والطفلان ثم جرى نحو حقل الذرة. سمعت ماريا شيئا ما وتوجّهت إلى النافذة. رأت كيف انغمس نيكو في حقل الذرة الناضجة.

ـ أنطونيو، أنطونيو، اجر والحق بنيكو، إنه سيختفي من جديد.

كانت العجوزان التوأمان تمشيان في درب خيالي لا أثر له فوق

الأرض، وهما تقطعان الحلوى التي لم تزل دافئة، تُخرجان من الكيس قطعا من الفواكه المطهية وفتات العجين الجافّ. حاول نيكو أن يقتفي أثر رائحة الموز، لكنّ الذرة كانت مسيطرة فضاع أثر الرائحة. توقّف ليمسح العرق عن جبينه. وعلى أقرب ورقة من عينيه، كان هناك خيط لم يكن من الذرة بل خيطا بشريا، أبيضَ وطويلا. كانت الأوراق الخفيضة فوق الشجيرات تتحرّك ولم تكن هناك من ريح في الأسفل؛ لأن أنطونيو برز يحمل خنجرا، وكان محاربا ضخما بالنسبة للنمل الذي سحقه في طريق.

ـ خِفْتَ يا نيكو! ماريا تناديك.

عاد الاثنان معا. انتبهت ماريا لاختفاء الحلوى.

ـ أخذتها العجوزان. عندما وصلتُ كانتا معا تحت النافذة، وذهبتا تحملان الحلوى. قال نيكو.

ـ هذا الأسبوع سيأتي طبيب البلدة، ربّما تستطيع أن تتحدّث معه. قالت ماريا.

ـ إنهما اثنتان، رأيتهما هناك في الأسفل، قبل بناء السدّ، تغسلان الملابس فوق الجسر. يبدو أنهما كانتا تشتغلان مع جيرالدو عندما كانت أمّه لا تزال على قيد الحياة. قال أنطونيو.

أطلقت ماريا تنهيدة انشراح متبادل مع نيكو. كان خائفا ممّا يراه، مصدوما من سباته الطويل أو نسيانه القصير، فلم يعد يدري أسوأ الأمرَين، النسيانُ أم التذكّر.

45

ـ اذهبي هناك إلى الخلف. قال ميسْياس.

مشت لوديريا عبر ممرّ المحلّ الجانبي، مرت عبر بابين، وراء كل واحد منهما مخزون من المكانس، والممسحات، والطسوت، والمُطهّرات، والحبوب. وفي الخلف، طرقت بابا آخر زُيّنت عتبته بسجاد مزركش.

ـ جوليا؟

ـ ادخلي.

جلستا على حافّة السرير، وكان فوقهما ستارة بلون بني. حكت جوليا عن محطة الحافلات، وعن دينورا، وتاديّو، والمرأة ذات اللباس البنفسجي، وعن النّزل، وعن وادي سيرّار مورينا الذي لم تصل إليه قطّ.

ـ هل تقضين اليوم كلّه هنا؟

ـ أحضر قدّاس الساعة السادسة، الذي لا تأتي إليه أنت.

حكت لوديريا كل شيء لليلى في تلك الظهيرة بالضبط.

ـ لن أستقبلها مرة أخرى في بيتي، أخبريها بذلك.

طلبت جوليا من لوديريا، التي صارت ترافقها الآن لحضور قدّاس ما بعد الزوال، أن تجد لها عملا تكميليا. تحسّنت طريقة

كلامها بعد أن اشتغلت في حمّامات المحطّة، باعت مزيلات الرائحة، فأصبحت تتمتّع بتجربة. رأت لوديريا أن الأمر يمكن أن يكون صعبا؛ لأنها لا تتوفّر على شبكة من العلاقات، بيد أن ميسْياس قد يعرف شخصا يشغلها بكلّ تأكيد.

ـ أنا بحاجة لأشتغل يا ميسْياس، ضمن كلّ من تعرفهم من الناس، أليس هناك من شخص يبحث عن خادمة؟

ـ جميلة مثلك تقوم بالتنظيف، بينما أنا أعطيك كلّ شيء.

ـ أنا بحاجة لأشتغل، يا ميسْياس.

ـ كي تجمعي مالا وتعودي إلى ذلك المكان الذي لا وجود له؟

ـ لن أعود إليه ثانية، أعدك بذلك.

تذكّر ميسْياس شخصا في سنّه، يدعى جورج، كان يتردّد على جمع في مكان يلتقي فيها أهل التقوى والرجال الشرفاء. من حين لآخر، كان جورج يسأل ميسياس ليرى إن كان يهمّه أن يتحدّث في الموضوع. كان جورج زبونا وفيّا للمحل، يقتني منه أسماك قدٍّ كاملة. كان ميسْياس يصارحه بأحوال التجارة ويحدّثه عن جوليا. أسرّ له عن اهتمامه بوضعها في مكان تشتغل فيه بكل أمان، دون أن تغيب عن ناظره. كان جورج زبونا منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة، منذ أن افتتح ميسْياس محلّه التجاري. باهتمامه المعهود، وبعد طول تفكير وتساؤل، حضر

ميسْياس إحدى الاجتماعات. كلّ يوم اثنين ليلا، كان يغلق المحلّ مدّعيا أنه سيذهب لقضاء بعض مآرب الحياة.

ـ جوليا، لقد وجدت لك مكانا جيّدا تشتغلين فيه خادمة. يتعلّق الأمر بقاعتَين كبيرتَين، ليس هناك كثير من العمل، ويؤدّون أجرا جيدا. هل يسعدك هذا؟

ـ كثيرًا جدّا.

كانت جوليا تذهب إلى العمل صباحا وتظلّ هناك مدة ثلاث ساعات، تصقل المقاعد الخشبية، والموائد المرمرية، وتنظّف المطبخ الذي لا تُغسل فيه الأواني أبدا. كانت تنفّض الغبار عن أغطية أقفاص الببغاوات، تشمع البلاطات ذات اللون الأبيض والأسود في القاعة الأولى. أمّا في القاعة الثانية، فكانت تصقل الكواكب والنجوم المرسومة في السقف، ثم تمرّر، من حين لآخر، الممسحة على الأرضية.

ـ يسمّونه «محفل ماسوني». قالت جولْيا.

ـ لم أسمع بذلك قطّ. قالت لوديريا.

ـ لا بدَّ أنها ديانة؛ لأن لديهم كتابًا مقدسًا فوق مائدة، مقاعد خشبية كتلك التي في الكنيسة، ورسومات على الجدران.

ـ اسألي ميسْياس، ما الذي يقوم به هناك يا جوليا.

ـ كي أستمرّ في العمل، اشترَطَ عليّ ألا أطرح أسئلة، وهو

مُشغّلي.

ـ كم أنت محظوظة يا صغيرتي! إنه يعتني بك مثل أب، تشتغلين من دون ربّة بيت. لقد حانت ساعتك...

ـ أيّ ساعة؟

ـ ساعة الارتقاء والنجاح.

46

عانت سيسيل وماري من الهزيمة لأنهما فشلتا في إعادة أنطونيو إلى قاعات المدرسة. كانتا في السنّ نفسِها وتعانيان معًا من المشكلات نفسها في الكبد والحُويْصلة. كثير من السوائل، قليل من الماء. أطفال دون تبنّي صاروا مستخدمين لديهما أو يشتغلون في المدينة، التي أخذت تتوسّع منذ وصول محطة التوليد الكهربائية ومجيء سكّان جُدُد. كان يقلّ عدد الأطفال الذين يظلّون يتامى، فعادت المدرسة لتلعب دورها الأول من تعليم القراءة والكتابة ومبادئ الدين. صارتا عجوزَين مسنّتَين معًا، فكانت طفلة يتيمة قد بدأت تُحضّر غرفة الراهبة الجديدة التي سوف تأتي من بعيد، من أجل القيام بإدارة المدرسة ونشر التعاليم الدينية. كل هذا وسط رائحة الماء القديم الموضوع في المزهريات، وثقالات ورقية رصاصية حتى لا تحمل الريح الأوراق، وأكياس الخزامي المستعملة داخل الجوارير.

كانت الراهبة الجديدة قد عبرت البحر على متن سفينة بخارية وقطعت عدة طرقات قبل أن تبلغ البلدة. استقبلوها بكؤوس الشاي وحفل عشاء أقامه القسّ. كانت الأخت فرانسواز في حدود الخمسين من عمرها، وجاءت تحمل في حقيبتها الجيلاتين ولحوم محفوظة ونبيذا حُلو المذاق. كما جلبت معها فتاتَين شابّتَين لا تتحدّثان ولو كلمة واحدة باللغة المحلّية، لكنهما ستوسّعان المدرسة في المدن المجاورة، وَفق

ثقة النفس التي كانتا تتمتّعان بها عندما غادرتا بلدهما الأصلي.

ـ ما زالت هناك أشياء كثيرة يُنتظر القيام به. قالت ماري متنهّدة.

ـ كل من يسمع كلامك قد يظنّ أن المدينة ضائعة، وأن الشباب لم يعودوا يتلقّون أي تربية وأن الكبار لا يراقبون ممتلكاتهم. ردّت فرانسواز محتجّة.

ـ لا يمكنك رؤية كل شيء. قالت سيسيل.

انسحبتا معا في الوقت ذاته، وظلّ الأب ربع ساعة آخر يشرح لفرانسواز المرحلة الجديدة من عملها. بعد بضعة أيام، عاد الأب ليقوم هذه المرة بتقديم الأسرار الخاصة بالمرحلة الأخيرة من حياة سيسيل وماري. توفيتا معا في اليوم نفسه، في ساعتَين مختلفتَين. في البداية، توفّيت ماري، التي أبت أن ترى جثمان سيسيل، التي بدت شابّة داخل تابوت مبطّن بثوب الكتّان.

حضر جيرالدوا مراسيم السهر على الميتتَين وشارك في حمل أحد النعشَين. طلبت منه فرانسواز موعدا حتى يتمكّنا من الحديث في المدرسة على انفراد.

ـ علمتُ أنّ هناك رجلًا ربيتموه ما زال يشتغل لديكم في المزرعة.

ـ نيكو؟

ـ نعم. أخ جوليا وأنطونيو. بما أنكم تتمتّعون، يا سيّدي، بحكمة وسلطة في إدارة الثروة، فإنني، باسم الراهبتَين المتوفّيتَين، أسلّمكم تفويضًا بتدبير الإرث الذي تركته ماري وسيسل لأنطونيو، شقيق مستخدمكم.

47

تعبت عيْنا تيموتيُو من النظر إلى الشساعة. عيناه المتعبتان لا تتّسعان لحجم الأشياء. لمح من بعيد حركة أذرع وأرجل، أشخاصا يصعدون وينزلون من سلّم ملتصق بسفينة كانت قد جنحت فتوقّفت رحلتها. كان هيكلها جديدا أسود وجوانبها ذات ألوان ذهبية. ونظرًا لكثرة ما كان من حولها من نباتات، ومن أشجار قوية وشلّالات، فإنه لم ير السفينة إلاّ في الجولة الثانية من ملاحظاته.

نظر إلى الوراء بحثا عن إنييْدو، الذي كان يتقدّم نحوه.

ـ من هنا خرجت المياه نحو الوادي. أفرغوا هذا المكان ليملؤوا ذلك.

ـ كلا، يا إنييْدو. لقد جاءت المياه من الجهة الأخرى، رأيتُ ذلك بأُمّ عينيّ.

ـ إنك لم تر أيّ شيء. من هنا، قلتُ لك. إن الناس الذين تراهم هناك في الأسفل قد توقّفوا عن رحلتهم منذ أن ظهر الضوء في سيرّا مورينا.

ـ وهل يسكنون هناك بالداخل؟

ـ حتى اللحظة. بدؤوا يزرعون بعض المزروعات في الجهة الخارجية. هناك امرأتان عجوزان توأمان كنت أعرفهما

تصعدان إلى هنا وتحدثاني.

ـ إن الأشخاص المسنّين لا يمكن أن يصعدوا إلى حدّ هنا يا إنييْدو.

ـ في هذه الجهة من الوادي، يمكنهم ذلك.

وشرح إنييْدو كلّ شيء. كان ركّاب السفينة يأكلون حيوانات الكابيفارا[1] والأبوسوم[2]، يشربون حليب الشجيرات الشائكة، ويعصرون الأزهار ليُحلّوا بعصيرها الفواكه ذات المذاق الحامض. وفوق الأرض لم يعد هناك من سمك ميت، إذ إنَّهم جمعوا كلّ شيء ليصنعوا منه سمادا. السمك، وكل فاكهة من فواكه المياه المالحة.

ـ لكن مياه السدّ عذبة!

ـ صارت عذبة بعد أن قطعت الممرّ. المياه تختلف في كلّ جهة من الوادي: مياه هذه الجهة مالحة، ومياه تلك الجهة عذبة.

ـ والممرّ؟

ـ هنا حيث نحن هو الممرّ.

ـ هل جاء نيكو إلى هنا؟

---

(1) تعدّ من أكبر القوارض، وقد يتجاوز حجمُها حجم الخروف. (المترجم)

(2) حيوانٌ أمريكيٌّ من ذوات الجراب. يتظاهر بالموت عندما يحدق به الخطر. (المترجم)

ـ لم أره منذ أن تزوّج.

ترك إنيئدو تيموتييُو عند باب الكهف وابتعد نحو عمقه، حيث بيته. كانت هناك أحصنة بحر مجفّفة ومتراكمة، يسحقها ويذرها على محار مليء برُزٍّ طُهي على مهل فوق نار بالكهف. قِطَعُ لحم لا تزال مغطّاة بفرو الحيوانات، ومدخّنة على جذوع سوداء. لَم يكن تيموتييُو مذعورا، بل مذهولا. كان يفكّر في العبارات التي سيحدث بها أصدقاءه عما رآه، بل إنه كان يتخيل طريقة ما حتى لا يخبرهم كيف وصل إلى هنا، حتى يعود بعد ذلك وحده، ويصبح هو البشير الذي يحمل الخبر إلى أهل القرية. تخيّل نفسه إلى جانب القس في مذبح الكنيسة، يقدّم بنفسه خبز الذبيحة؛ إذ إنه هو وعاء الرّب. سوف أحظى بالاحترام والتقدير، سيترك لي السيد جيرالدو المزرعة، وسأتزوّج بعد شهر.

48

أرسل جيرالدو في طلب نيكو، وبسرعة.

ـ اذهب وابحث عن تيموتيُو؛ فأنت تعرف الطريق.

ـ هذا ليس صحيحا، الناس يقولون أيّ شيء.

ـ إذن، أنت لا تعرف الطريق؟ يمكنك أن تحكي هذا لشخص آخر، إلى أخيك المعتوه، وليس لي أنا. من يذهب مرة، يعرف كيف يعود.

ـ إن كنت شجاعا، فاذهب بنفسك يا سيّدي.

ـ لا تكلّمني بهذه الطريقة، وإلا عاقبتك لوقاحتك. حذارِ!

لم يلتحق نيكو بعمله يوما، يومين، ثلاثة، أربعة أيام. بقي في البيت رفقة ماريا وأنطونيو، اللذَين استغربا مُكوثه طوال اليوم. فالأشياء كانت تُحضّرُ في دفئ النهار، من يد إلى أخرى، بين يد ماريا ويد أنطونيو، غير أنّ يد نيكو كانت تزيد عن الحاجة.

ـ ما بك؟ سألته ماريا.

ـ لن أعود ثانية إلى المزرعة.

سمعه أنطونيو. وضع قبّعته وخرج. توغّل في حقل الذرة وعاد ليلا. مشى نحو مركز الحقل. كان يعرف الاتجاهات الأربعة وظلّ واقفا في وسطها بالضبط. كان يعرف جيدا

الممرّات بين الصفوف، وكانت خطوط الزرع تلتقي بخطوط تفكيره. ويبدو أن جيرالدينا كانت تنفخ على الأوراق قبيل مروره بالضبط، خلال مدة وجيزة، من قَدَمِ النبتة إلى وسطها، فيما يعادل قامتَه.

في قلب الحقل، كانت هناك فسحة صغيرة جدا، تنقصها شتلة واحدة، هي مُصلّى أنطونيو. نظر نحو الأعلى، الذرة محمّلة بالحبّات هناك، السحب في السماء، وجيرالدينا عند قدميه.

ـ هل ذهبتَ لتقطف الذرة الناضجة؟ قال نيكو ساخرا.

ـ قطفتُ أفكارا.

قال أنطونيو إنه سيذهب ليتحدّث مع تيزيكا، التي كانت هي أم جيرالدو في غياب أمه الطبيعية، وسيعود قريبا. لن يمضي وقتا طويلا في المدينة؛ لأنه لا يعرف أين يقضي الليل هناك. كما سيغتنم الفرصة ليرى ذلك المكان الجديد، وكل الناس الذين يسكنون بعضهم بجوار بعض، يفصل سور قصير بين حدائقهم الصغيرة. وسيزور المدرسة بعد سنوات طويلة.

ـ من دونك لا أستطيع أن أتدبّر كل شؤون البيت وحدي. أهذا ما فكّرت فيه وأنت في حقل الذرة؟ قالت ماريا.

ـ قطفتُ فكرة أخرى. إن لم تستطع تيزيكا أن تثني جيرالدو عمّا في ذهنه، فسنذهب جميعا إلى الجهة الأخرى من الوادي.

ـ لن أذهب إلى الجهة الأخرى رفقة الطفلين. قال نيكو محتجًّا.

ـ شخصيّا، لا تعوزني الشجاعة للقيام بذلك. أردف أنطونيو.

ـ وهل من الشجاعة أن يجبرونا على عبور الوادي؟ قالت ماريا وهي تغادر القاعة.

جرى أنوفْري من ورائها، وتبعت أنيزْيا شقيقها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

49

لم يتحرّك أنطونيو، ونيكو وماريا من أماكنهم، كما لم تفعل جيرالدينا. فوق آخر صحن عند منصب التجفيف كانت تجفّ آخر دمعة غير مالحة من ماء الصهريج. صرّت البوابة، وبعد أن ولج الفناء جعلها جيرالدو تصرُّ بقوة أكبر وهو يغلقها من الداخل. ذهب نيكو لاستقباله.

ـ ماذا هناك يا سيّدي؟

ـ أنتظر منك أن تستضيفني أيها الصغير، وهذا أقلّ ما يمكن أن أنتظره من امتنانك.

أوثق جيرالدو الحصان عند شجرة الجوّافة. كان أنطونيو يُعضْعضُ خبزا بالقرفة، وجيرالدينا تتلوّى عند ربلتَي ساقيه. سقطت قطعة خبز من يديه وتدحرجت تحت المقعد ناثرة غبار القمح. ذهبت ماريا لتحمّم الطفلين في حوض الماء، وقدَّم نيكو ماء لحصان مُشغّله، متصرّفا بعيوب مستخدم. كشط جيرالدو الأرضية بجزمته فارتفع غبار خفيف، ثم اقتربت خطواته من مطبخ أمه، التي اضطربت.

نظر جيرالدو تحت المقعد فرأى بركة ماء صغيرة. حدّق في سروال أنطونيو ليرى إن لم يكن القزم قد تبوّل من الخوف أم من سَلَس البول. كانت بركةُ الماء هي أمُّه، معطرة بالقرفة. ومع أنها لم تكن من الغازات النبيلة، فإن جيرالدينا كانت لها

تصرفات غريبة. ظل أنطونيو جامدا في مكانه. وضع ما بقي من الخبز فوق المجلى، ولم يعد يشعر بالجوع.

دخل نيكو وعرض قهوة على جيرالدو.

ـ فيما بعد. الآن، أريد أن أشتري هذا المنزل يا نيكو.

كان صوت الابن والهواء الساخن الصادر عن جسده كافيَين ليجعلا بركة الماء تغلي وتتبخر. جيرالدينا، التي فقدت شكلها المحدّد، لم يكن بإمكانها أن تتصرّف مثل نظام مغلق في حضور دم ذوي القرابة.

ـ أنا لا أبيع البيت، حفاظا على ذكرى والديّ.

ـ ذلك البيت حمله الماء، والذكرى أمر من أمور الذهن.

عرض جيرالدو مبلغا مهمًّا، يكفي لاقتناء منزل جميل في المدينة، حيث الأضواء تسري وتلمع في الخطوط الكهربائية. تحمّس أنطونيو وماريا للعرض. فالطفلان سيذهبان إلى المدرسة، وسيرون جميعا أشياء جديدة كلّ يوم حتى يتعوّدا على جيران قريبين جدّا منهم.

ـ أنا لا أريد أن أغادر هذا المكان، ويجب أن تدلي جوليا -أيضا- بكلمتها في الموضوع. هذا البيت هو بيتها أيضًا.

وهو يتذَكّرُ جوليا فقد جيرالدو عزميته. كان عليه أن يبحث عنها في المدينة الكبيرة. قضى الليلة في سيرّا مورينا. كان يريد

ذلك البيت ليحظى برؤية استراتيجية على مزرعته.

في الصباح الوردي، كانت الدجاجات تقيق، فذهب جيرالدو ينظر إليها تنبشُ الأرض، كما لو أنها قد أصبحت في ملكه. رأى امرأتَين عجوزَين متطابقتَين، ترتديان التنورتين نفسهما، لهما الشعر الأشيب المعقوص نفسه، واليدين المتجّعدتين كلتيهما. لم يكترث جيرالدو للأمر، فتوأمان عجوزان لا يمكنهما أن تصيبا طائرا بأيّ سوء.

ـ ماريا. صاح جيرالدو، ليس ليفزعهما، بل كي تأتي ماريا لمساعدتهما. سمعه نيكو من الشرفة. رأى جيرالدو بقميص مفتوح وفم فاغر من الدهشة. عندما صاح، جَرَت العجوزان بقُوّة طفلتَين وتوغّلتا في حقل الذرة.

ـ نيكو، اذهب وأحضر بندقيتي.

أطاع نيكو الأمر. كان السلاح ممدّدا فوق الأريكة التي نام عليها السيّد.

ـ خذ. قال وهو يسلّم البندقية دون أن ينظر إلى حيث كان يسدد جيرالدو. ثم عاد إلى المطبخ، أمسك ماريا من ذراعها وأشار إلى أنطونيو أن يلزم الصمت.

أطلق جيرالدو طلقة في الهواء وأخرى باتجاه العجوزين. سمع صيحة، وأوراقا تتحرّك. خرجوا جميعا من البيت، وجرى جيرالدو خلف أثر الخشخشة. قبل أن يتوغّل في الكثافة

الخضراء، خرجت من الحقل كلبة صغيرة كثيرة الشعر، تمشي دون قناعة ومرت بين ساقيه.

ـ إن حقل الذرة يُثمرُ كلابا. قال أنطونيو.

50

ـ هل من جديد عن المحفل الماسوني يا جوليا؟

ـ لا شيء، فقط ملابس رسمية، سيوف وكتاب مقدّس. لا بدّ أنها ديانة، مع أنها تبدو ضربا من السينما.

ـ خذيني معك، لدي تجربة، وبنظرة واحدة سوف أفهم بماذا يتعلق الأمر.

تمكنت لوديريا من الحصول على إذن من ليلى ورافقت جوليا ذات جمعة، في يوم من أيام العمل، عند بداية الظهيرة. عند الوصول، انتبهت جوليا إلى فروغ مواد التنظيف التي كانت شبه منتهية. اقترحت عليها لوديريا أن تذهبا لاقتنائها في الحي. بعد ذلك، يمكن لجوليا أن تطلب تعويضا من مشغلها، على أنه من الأفضل أن يتركا كل شيء كما كان. لدى عودتهما، أدركت جوليا أن هناك شخصًا ما داخل المنزل. طلبت من لوديريا أن تبقى في الخارج حتى يغادر الغريب. كان رجلا أنيقا، يرتدي بنطالا ذا ثنية ومعطفا طويلا.

ـ ماذا تريدين آنستي؟

ـ أنا الخادمة. ذهبتُ لأشتري مواد التنظيف. ميسْياس هو من أعطاني مفاتيح المحل.

ـ لقد حدّثني عنك، ادخلي.

جرت جوليا نحو المطبخ وراحت تنظف ببطء خزانة كبيرة بداخلها عشرة أكواب. كانت تسمع أصواتا تشي بما كان يفعله الرجل. دنت من الباب كي ترقبه، فوجدت نفسها وجها لوجه أمام العجوز الذي كان يبدو من قريب بحاجبين كأنهما طنفَين فوق وجه مجعّد.

ـ أنا ذاهب، سلِّمي المفتاح لميسْياس.

ـ نعم، سيدي.

لم تسلّم قط المفتاح لميسْياس، الذي كان يتركها معها لأنه يثق فيها ثقة مطلقة. وما إن أغلق الرجل الباب حتى بلّلت المنديل النظيف واتجهت صوب النافذة عند واجهة المكان. كانت لوديريا تقف في إحدى محطات الحافلات البعيدة بعض الشيء، لكنها قريبة بما يكفي كي تلاحظ أن العجوز قد غادر المحل. عبرت لوديريا الشارع، فتحت جوليا مزلاج الباب وتركتها تدخل.

ـ تأخر كثيرا! وقد تجاوزت الساعة الرابعة.

ـ سوف أبدأ عملي الآن، كنتُ فقط أتظاهر بذلك حتى الآن.

جلست لوديريا فوق الكراسي، والمقاعد، مررت يدها فوق اللوحات، وتصفّحت الكتاب المقدّس.

ـ إنها ديانة يا جوليا. هناك من يتحدّث انطلاقا من هذه الطاولة الصغيرة هنا، والآخرون ينصتون إليه كأنهم يتابعون

قدّاسا، قداسًا لا يحضره سوى الرجال، شيء غريب، أليس كذلك؟

ضجيجٌ عند الباب جعل لوديريا تقفز، فحملت الكتاب المقدّس بيديها إلى صدرها. رأى الرجل جوليا منحنية على الأرضية ولوديريا تعانق الكتاب المقدّس. عصرت جوليا المنديل داخل السطل، فتساقط الماء مثل دموع. ومن وسط الساقين، انبجس خيط بول انْفلت من المثانة.

ـ اخرجا من هنا. حالا!

51

دخلت لوديريا مطأطأة الرأس إلى غرفتها الصغيرة. سمعت ليلى خادمتها تصعد سلالم الغرفة الخلفية فذهبت تنتظرها في المطبخ. لن تذهب هي إلى لوديريا، لأن لوديريا هي من ستأتي إليها. أطفأت ليلى الضوء وظلت جالسة تأكل فطيرة بالذرة. بعد عشرين دقيقة، نزلت لوديريا عبر السلالم، عبرت الحديقة، دفعت الباب ذا النوابض، أشعلت الأضواء واتجهت مباشرة نحو المصفاة الطينية. وهناك كانت ليلى جامدة.

ـ أنت مطرودة من العمل.

تكسر الكوب وهو نصف ممتلئ بالماء.

ـ تأخر القدّاس، سيدتي ليلى، وكنت أؤدّي صلوات تُساعية.

ـ لكثرة مخالطة تلك الجحودة، أصابتْك -أيضا- لعنة تلك الأسرة.

ـ سيدتي؟

ـ جوليا هذه، لا تجلب سوى المشكلات.

ـ ليس لي أي علاقة بجوليا، سيدتي ليلى، أعدُ...

ـ اخرسي.

عندما وصلت جوليا إلى المحل لم تر ميشياس عند صندوق

النقود، فجرت نحو الخلف. كان ميسْياس بانتظارها كما كانت ليلى بانتظار لوديريا، هناك في عتمة الغرفة كي يُصدر حكمه.

ـ تلقيتُ مكالمة قبل وصولك.

ـ بخصوص لوديريا؟

ـ لقد حذّرتُك أن العمل جيد وأنني لا أريد منك مقابل ذلك غير وفائك. لا يمكنني أن أستمرّ معك يا جوليا.

ـ لقد ذهبت لوديريا فقط لترى كيف كان المكان من الداخل.

ـ لقد أعطيتني وعدا ولم تفِ به. لا يمكنني أن أحتفظ بك.

خرج ميسْياس من الغرفة الصغيرة ووضع مالا فوق السرير. كانت أوراقا نقدية مستعملة ومطوية. هيأت جوليا حقيبتها، الحقيبة نفسها التي كانت تحتفظ بها منذ أيام الميْتم. لفّت النقود في منديل كانت قد طرّزت اسمها عليه بحروف طفولية وهي في سنّ التاسعة، يوم كتبتْ «جوليا مالاكْياس» بحروف ملتوية، فبلي هذا الاسم من فرط استعمال المنديل.

التقتْ داخل الكنيسة بلوديريا التي كانت تؤدي «سلاما ملائكيا». جلست إلى جانبها، فشعرت لوديريا بحضورها كأنه جواب من السيدة العذراء. لمستا الماء المقدّس بأصابعهما، ورسمتا معا علامة الصليب على جسديهما ثم ذهبتا نحو السلالم الخارجية.

ـ لقد طردوني بسببك.

ـ كيف علمتْ بذلك؟

ـ أنت مدينة لي بعمل.

ـ هل نذهب إلى محطة الحافلات؟

ـ أين؟

ـ محطة الحافلات.

ـ نعم، محطة الحافلات، فهمت. لكن، إلى أين سنذهب من هناك؟

ـ سوف نبقى هناك.

ـ هل جُننتِ؟

ـ لقد أعطاني ميسْياس بعض المال، نستطيع أن نشتري ما نأكل. هناك مكان يمكن أن نترك فيه حقائبنا، نبقى بالقرب من المسافرين، نتجوّل وسطهم، حتى تخطر علينا فكرة ما. وهناك داخل المحطّة، ليس هناك من مطر، ولا ريح. لن يطردنا أحد من هناك.

52

كان تيموتيُو مستيقظا ونائما في الوقت ذاته. في عمق الكهف، أشعل إنيْدو النار. درّجَ لونٌ ليلكي شمْسي جوانب السفينة بمراتب من اللون البنفسجي. كانت الأدغال الكثيفة تغطّي أكثر من نصف السفينة. ونظرًا لحجم الجؤجؤ فقد كانت سفينة شاسعة.

ـ هل ستنام هنا يا تيموتيُو؟

نشر أحدهم ملاءة فوق درابزين جؤجؤ السفينة. ملاءة بيضاء، تصلح لسرير مزدوج. امرأة ذات شعر ذهبي، شابة، بذراعين رقيقتين.

ـ إنيْدو، ثمة أشخاص هناك في الأسفل.

ـ كفّ عن النظر إليهم، وإلاّ، فإنهم سينظرون إليك أيضا.

واجه تيموتيُو إنيْدو.

ـ وماذا إذن؟

ـ إنك هنا منذ ثلاثة أيام، فهل تنوي البقاء ليلة أخرى؟

ـ أريد أن أعرف كل شيء، ربما لن أتمكن من العودة.

ـ إنك تعرف الطريق الآن.

وتسلل نُباحٌ مكتوم إلى قبّة الكهف.

ـ هل لديك كلب يا إنييْدو؟

ـ كلا، أنا لا تعجبني الكلاب. يقضي المرء وقته في إطعامها.

الكلبة ذات الشعر الكثيف التي ظهرت في حقل ذرة نيكو، دخلت بلسان يتدلى، وأخذت تنبح عاليا، دون أن تحرك ذيلها.

ـ اخرج، أيها الكلب! صاح إنييْدو.

وراح يطرد الكلبة حتى خرجت.

ـ لا أريد أن أحتفظ بهذا الكلب، ولا بك أنت أيضا.

ـ غدا سوف أستأنف طريقي.

قدّم إنييْدو لتيموتييُو جذرا مشويا طيب الرائحة.

ـ كل، هذا له رائحة امرأة. قال إنييْدو.

ـ لماذا لا تعود أنت؟ إن زوجتك وأبناءك، والسيد جيرالدو؛ الجميع هناك في الأسفل يريدون أن يعرفوا مصيرك. إنهم يحسبونك ميتا.

ـ لن يحسبوني كذلك بعد الآن، عندما ستحكي لهم أنك رأيتني.

ـ إما أن أخبرهم أنني رأيتك، أو أقول لهم إنني رأيت السفينة. إن حكيتُ لهما الأمرين معا سيحسبونني مجنونا.

ـ معك حق.

ـ يجب أن يصدقوني! لم يتجرأ أحد أن يأتي إلى هنا، باستثنائنا أنت وأنا.

ـ وأنطونيو؟

ـ لقد أصبح أبلهَ. يقول حماقات. عندما اختفى نيكو، قال إن الرجل قد سقط في إبريق القهوة.

ـ وجوليا؟

ـ وجدت لنفسها أسرة في المدرسة، ولم نسمع عن أخبارها قطّ.

ـ إن جوليا هي مالكة هذه الأراضي بكاملها.

ـ ماذا تقول؟

ـ إنها بنتُ جيرالدو.

سُمع من جديد نباحُ الكلاب، الذي صار الآن بعيدا أكثر فأكثر. نهض تيموتييُو ومشى حتى بلغ شفى الهوّة. كانت الكلبة في جؤجؤ السفينة تحرك ذيلها.

53

وضعت جوليا ولوديريا حقيبتَيهما في مستودع المحطة وبحثتا عن مقعد بعيدا عن الحمام، كما اشترطت جوليا.

ـ يمر من هنا عدد كبير من الناس، والملابس تتشرّب رائحة المُطهّرات.

كانت المرأتان تشكّلان موضوع لوحة لأي فنان وهما جالستَين معا، الحقيبتان بين أذرعهما، وأياديهما فوق الأفخاذ.

ـ لن أتمكّن من ذلك يا جوليا.

ـ من أي شيء؟

ـ أن أظل هادئة مثلك، لست من النوع الذي يظلّ هادئا دون أن يفعل أي شيء.

نهضت لوديريا لتدخل إلى الحمام، فتابعتها جوليا بعينيْها. كانت عقارب الساعة تُسقطُ الدقائق، وكان هناك مسافرون وراء حافلة، الأشخاص أنفسهم كالعادة. تعرّفت جوليا على عدة مجهولين، شباب من دون مأوى مثلهما، بائعة السندويشات الصغيرة، لكنها لم تر دينورا. عادت لوديريا، متوترة.

ـ ثمة امرأة عجوز أنيقة تشبه ليلى سألتني عن الساعة في الحمام.

ـ وهل قلت لها كم الساعة؟

ـ كلا. أنا لا أتوقّر على ساعة. قالت لوديريا وهي تريها معصمَيها العاريين ثم جلست.

ـ هل هناك من أقارب تستطيعين أن تبحثي عنهم هنا؟

ـ لا أحد. أنتقل من أسرة إلى أخرى حتى يطردوني. حتى أسرتي الحقيقية يطردونني، لم تعد لديّ أسرة. عند الأسرة، تدخل الواحدة منا وتخرج، سواء عند مشغلتها أو عند أمها. وعندما تظلّ الواحدة منا تحت تنّورة أمها، فإنها تفقد القوة تماما. تصبح زائدة عن الحاجة، وفي الأخير تُحمّم امرأة عجوزا لا تكفّ عن الكلام والمطالبة بأشياء طوال اليوم. لقد غادرتُ في الوقت المناسب... جوليا! انظري!

ـ تماما كما حصل في المرة الأخيرة. قالت جوليا هامسة.

ـ لذلك رغبْتِ في الالتحاق بالمحطة أيتها الشقية.

ابتسمت جوليا مع اقتراب ميسْياس. سكتت لوديريا وانتظرت بداية الحديث لطرح أسئلتها.

ـ غضبتُ حتى فقدتُ صوابي.

ـ هل يمكن أن تتكلّم وأنت تنظر إلي أنا أيضا يا ميسْياس؟ طلبت منه لوديريا.

ـ أنت أردت أن تحشري أنفك في أموري الخاصة وفي

حياة جوليا.

ـ أحشر أنفي في أمر المحفل الماسوني؟ ما الذي يمكن أن أراه هناك؟ لا شيء. أمور لا أهمية لها، ومع ذلك يعطون أنفسَهم أهمّيةً كبيرة. ما أهمية ذلك؟ قل لي. يطردون جوليا فقط لأنها أخذتني معها لأتعرّف على البيت؟

ـ الخطأ ليس خطأ لوديريا.

ـ جوليا، كُفّي عن الكلام.

ـ على المرء أن يحتفظ بالعدو إلى جانبه حتى يعرف ما يحيكه في الخفاء.

ـ ميشياس! العدو، أنحن معا هما العدو؟ قالت لوديريا.

ـ دعيك من هذا، إنني لا أريد بك سوءا. سوف تعودان معي إلى المحل، وتنامان في الغرفة الخلفية.

نظرت جوليا إلى الأرض وخجلت من قبول العرض. ظلت لوديريا تنتظر رد جوليا كي توافق على قرارها.

ـ هل ستظلان جامدتَين هنا مثل جبلَين؟

ـ هل نذهب؟ سألت جوليا لوديريا.

ـ هذا أحسن من محطة الحافلات.

ـ لدي عمل لكما معا. سوف أوسع المحل، وسأبيع

الأثواب. لذلك أنا بحاجة لنساء لهنّ دراية بقطع القماش.

تبعهما ميسْياس حتى مستودع المحطّة، وحمل وحده الحقيبتين حتى خرجوا إلى الشارع. في خلفية المحل، تقاسمتا سريرا لشخص واحد. في اليوم الموالي، سوف تبيعان سُندُسا، نسيجا صوفيا رقيقا، أثوابا قطنية، خيطا، إبرا وصوفا.

54

خرج تيموتييُو من كهف إنييْدو. عبر قمّة جبال سيرّا مورينا، مرّ أمام بوابة نيكو مالاكْياس ثم نزل دون أن يتوقّف. نزل بهدوء، يقود الحصان بثبات والكلبة ذات الشعر الكثيف تتبعه، بوفاء صداقة قديمة. وراح يمحّص أفكاره حتى بلغ المدار الطرقي للبلدة. وبعد أن وصل إلى السهل، أخذ أول شارع عريض، حيث كان فرسان آخرون يقشّرون التبغ الأسود المُر عند طاولات الشرب. التفتوا ليروا تيموتييُو يصل. كانوا يعرفون جميعا أن تيموتييُو قادم من الجهة الأخرى من الوادي.

تابع سيره عبر الشارع الرئيس حتى بلغ الكنيسة، ثم خلع قبّعته ورسم علامة الصليب على نفسه. ترجّل عند الساحة. تبعه صفّ من الناس. كانوا ينتظرون منه خطابا، كلمة، أيّ شيء.

ـ كيف هي الأمور هنالك يا رجل؟

ـ هل أنت قادم من الجهة الأخرى؟

ـ هل ذهبت فعلا إلى هناك يا تيموتييُو؟

ـ هل تسقط الأمطار هناك؟

ـ هل ثمّة طعام هناك؟

ـ هل ثمّة بيوت؟

ـ وهل هناك حقول؟

ـ هل الناس مثلنا؟

ـ هل جلبت معك شيئا لترينا؟

ـ هل صحيح أنه أجمل من هنا؟

لم يستطع تيموتييُو مجاراة إيقاعهم. صَمتَ وظلَّ يستمع لسؤال وراء الآخر، حتى يستجمع الأجوبة في ردّ واحد، وخطاب وحيد، غير مسبوق، قادر على إدهاشهم.

ـ إنك مثل نيكو، الذي ينظر إلينا دائما في صمت.

ـ هل ثمّة حيوانات؟ خيول؟ وهل جاء هذا الكلب رفقتك؟

كان الناس يتجمّعون في دوائر متتالية في الساحة. وما إن تكفّ الصفوف الأولى عن طرح الأسئلة نفسها حتى يكرّرها من يلتحقون للتوّ. جاء القسّ، رجل شاب عليه ملامح الفحولة، فاخترق حشد الناس، واثقا من صلاحيات سلطته. كانت الكلبة في الساحة قرب ساقي تيموتييُو، وأمامها مباشرة كانت تَرى أزواجا من العيون تبحث عن تيموتييو فوقها.

ـ أيها الشابّ، إن كان لديك ما تقوله، فأخبرنا الآن ولتكن الكنيسة شاهدة على ذلك. قال القسّ.

تقدّم تيموتييُو خطوتين إلى الأمام، أسند بطنه إلى الدرابزين، خلع القبّعة وغطّى بها إحدى يدَيه.

ـ أيها الجيران الأعزاء، لقد تعرّفتُ على الجهة الأخرى من الوادي. أنا قادم من هناك. رأيتُ إنيئيدو؛ إنه يعيش في كهف ويقتات على حيوانات المياه المالحة. هناك يوجد بحر، وأناس وجدوا أنفسهم عالقين في سفينة جميلة جدا ومذهّبة مثل الكنيسة، لا بدَّ أنهم مسيحيون. لم أر قسّا ولا مزارعا. رأيتُ أناسا بيضا، بشعر نحاسي، أصفر قاتم مثل الذرة الناضجة، سنابل من الناس غريبي الأطوار. الآن، أعرف ما سيقع لنا، دعونا نعود حيث الضوء وسنعيش كما كنّا من قبل. مياه السدّ سوف تعود إلى هناك حتى تتمكّن السفينة من مواصلة رحلتها وعلى متنها تلك السنابل.

ـ لقد جنّ هذا الرجل! لوسيلين، هيا بنا. قالت أم لابنتها.

ـ لقد فقد عقله! سوف يقيم في هذه الساحة. من يُراهنُ على هذا؟ صاح أحد التجار.

في الكهف، كان إنيئيدو يسحقُ اللوز في مهراس حجري. يغمس أصابعه في العجين الزيتي ثم يمتصّ أصبعين دفعة واحدة. كانت المرأتان العجوزان تحضران الصابون وسط الكهف، نقطة تدفئة البيت. الأولى تحرّك الصابون في اتجاه عقارب الساعة بينما الأخرى تستريح. هكذا، كانت كُوَر من الشحم ورائحة الحيوان تتراكم شيئا فشيئا في سلّة.

ـ هذا الشاب لن يعود بكل تأكيد. قال إنيئيدو وأصبعٌ في فمه.

ـ من الأحسن ألا نعوّل على هذا. قالت إحدى المرأتين.

ـ لننتظر حتى نرى. قالت الأخرى.

ـ لقد تبعه الكلب، لا بدّ أنه متعب الآن. قال إنييْدو.

ـ الكلاب تتبع القطيع، وتحب الثيران. قالت إحدى العجوزَين.

55

كان جيرالدو طريح الفراش منذ عدة أيام. يتنفّس بصعوبة، قدمه منتفخة، وصوته أجش. كان يشعر بثقل في وركيه، وثقل في صدره. كان قلبُه أكبر من قدمه، شريان واسع يحمل نسغا قليلا. جلده متجفّف، وشقوق في باطني القدمَين، في القفا وعند المرفق. أمّا تيزيكا، فكانت عجوزا بجلد مرهف كأنّها حلية من الحلي وتتمتع بنفَس معسول.

ـ جيرالدو، من الممكن أن ترحل وتتركني وحدي، وحينها لن أموت أبدا.

ـ هيا اذهبي واجلبي لي ماء يا تيزيكا! دمدم جيرالدو.

امتثلت تيزيكا لأمره وذهبت لتجلب الماء. لم تسمح للممرضة الشابة التي تعمل في البيت أن تذهب إلى المطبخ بخطوات أسرع من خطواتها. ذهبت متباطئة، وكانت شمس النوافذ تكنس الألواح الخشبية، وربْلتا ساقيها الدقيقتين تقطعان الضوء. لم يكن منزل المدينة يعادل شساعة منزل مزرعة ريّو كْلارو. أخذت تيزيكا قدحا معدنيا، ملأته بماء من الجرّة. كان مذياع المطبخ يتحدث وحده، يذيع إشهارا خاصا بحليب المغنيسيوم. عادت تيزيكا بالسرعة التي ذهبت بها، ربْلتا ساقيها تقطعان الضوء درجتين أكثر من المرة السابقة. عندما دخلت إلى الغرفة، كانت الممرضة تضرب بكلتا يديها

صدر جيرالدو، الذي تدلّت يداه على حافّة السرير. كان اتجاه قدميه معاكسا، يمينا ويسارا، كل قدم تشير إلى اتجاه. سقطت الكأس على الأرضية المُشمّعة، وتدحرج الماء في خطّ ليختبئ تحت قدم السرير، حيث ظهر على شكل خطوط عديدة. سقطت تيزيكا. تركت الممرضة جيرالدو وأنهضت تيزيكا، التي كانت دون قوى.

ـ خذي الكأس. أمرت تيزيكا.

ـ أنت بحاجة لشيء من الراحة، سيدتي.

أُقيم طقسُ السهر على جثمان جيرالدو في مقبرة المدينة الجديدة والصغيرة. وكان قبره من أول القبور. أمرت تيزيكا أن يدفنوه قرب بوابة المقبرة حتى تستطيع أن ترى جزءا من المقام الأخير لسيدها، دون حاجة لتلج حديقة الأموات. لم تحضر الجنازة التي مشى على رأسها تيموتييُو يتقدم النعش. نامت نوما عميقا، بعد أن هدّأتْها الحقن الغليظة. نامت واستفاقت شائخة. قرعت أجراس الكنائس معلنة عن جنازة جيرالدو. حضر نيكو الجنازة، صلّى ولم يذرف دمعا.

56

علمت جيرالدينا بموت جيرالدو من أحاديث الناس وكلامهم. لم يذهب أنطونيو للجنازة، ماريا لم تسمح بذلك. لن يتركوا أغراضهم، لن يغلقوا البيت ويأخذوا الطفلَين ويذهبوا إلى المدينة من أجل شيء حزين كهذا، من دون سبب وجيه. أمرٌ سخيف أن يقوموا برحلة كبيرة من دون مكان يقضون فيه الليلة.

لم تتأثر جيرالدينا لخبر وفاة جيرالدو. كانت المسافة بينها وبين ابنها، ماديا، هي المسافة نفسها بينها وبين عاكس نور في غرفة سيّدة مصريّة. أما الاتصال الكيميائي، فلا يتحقق بينهما إلا بالقرب. إن التقت الأم والابن، فإن ذلك يحدث دون صدام، فقط تنميلٌ لا يرى إلا تحت عدسة قوية. جثت على ركبتَيها عند قدمي أنطونيو وظلّت وقورة وكتومة.

57

فرانسواز، الفرنسية الرقيقة في المدرسة، عرضت على تيزيكا غرفة لتقيم فيها حتى آخر أيام حياتها. وهناك بقيت تيزيكا تفني ما بقي من عمرها. تنام وتقيم. ذات يوم، لم تستيقظ، وفي اليوم الموالي ذهبت إلى قبر بعيد عن قبر جيرالدو، في عمق المقبرة، قرب الجدار، من دون صور ولا أزهار. يومها، كانت الحياة نفسها في الشوارع، والمحلات التجارية. وتساءل الناس لمن ستذهب ثروة جيرالدو، رجل لئيم لم يترك من ورثة. استدعت الأخت فرانسواز تيموتيُو إلى المدرسة.

ـ لقد تركت ماري وسيسيل كل ممتلكاتهما لأنطونيو مالاكْياس. لقد أخبرت شخصيا بذلك جيرالدو باسوس بعد موتهما. وحسب معلومات مدّني بها المحامي، فإن جيرالدو لم يسلم الإرث لمن يستحقه. لم أكن متوجّسة قطّ؛ لأن جيرالدو نفسه وضع تحت وصايتي جزءا من ثروته. وبما أنه كان دون ورثة، رأيتُ في تصرفه علامة ثقة فلم أشك قطّ في نزاهته. لم يلمس إرث أنطونيو، لكنه لم يسلمه إليه. والحال أننا اليوم نقوم بفتح وصيته.

ـ هل يوجد اسمي في الوصية؟ سألها متلهّفا.

ـ نعم يا تيموتيُو. محاصيل البُنّ القادمة من نصيبك. كما سيكون من حقك أن تستفيد من منافع وأرباح مزرعة ريّو

كْلارو مدة عشرين عاما.

ـ هل ترك لي المزرعة؟

نهض تيموتييُو من فوق الكرسي؛ لأن كلام الراهبة البطيء والرسمي كان يصيبه بالوهن. كان يريد تأكيدا مباشرا، وجها لوجه.

ـ هل المزرعة ملكي، سيدة فرنسا؟

ـ ليس فرنسا بل «فرانسواز»، يا تيموتييُو. كلا، أنت لا تتمتع إلا بحق الانتفاع من محاصيل الزراعة. أما مزرعة ريّو كْلارو، والمنزل، والمواشي، والأثاث فإن ملكيتها تعود إلى موارا دوس سانتوس.

ـ من؟

ـ تلك العاهرة التي كان يعيلها في حياته. أما ما يعود إليك، فهو جزء من حق الانتفاع مدة عشرين عاما.

ذهب تيموتييُو إلى بيت نيكو.

ـ أنطونيو أصبح غنيا!

ـ لن يريد أنطونيو شيئا من المدرسة. قال نيكو.

ـ طبعا، أريد، حتى لو كان مشطا، وماريا ستريد منضدة الزينة. قال أنطونيو.

ـ سوف أرافقك لنبحث عن ذلك يا أنطونيو. ينبغي أن نذهب إلى البنك، هناك مال كثير. اقترح تيموتييُو.

فبحث أنطونيو عن موافقة نيكو، دون جدوى.

ـ أريد أن آخذ إرثي، ما الذي يزعجك في الأمر؟

ـ لقد أرسلوا جوليا بعيدا عنا.

ـ الآن وقد صرنا أغنياء، يمكننا بوساطة المال أن نسافر ونبحث عن جوليا.

تهلّل وجه نيكو، فرأى تيموتييُو في ذلك فجوة للتفاوض.

ـ كان جيرالدو لئيما حتى موته. ترك كل شيء لموواراا، تلك العاهرة التي كان يلتقي بها في بيت والدك. أمّا أنا، فترك لي حقّ الانتفاع من المحاصيل مدة عشرين سنة. لماذا لا نشترك في الأراضي يا نيكو؟

كانت ماريا تستمع من الغرفة، بينما كان أونوفْري وأنيزْيا يجريان في الفناء. شعرت ماريا بغصّة في حلقها وهي تسمع اسم موواراا، امرأة عاهرة ومع ذلك تنال إرثا. يا لَحظها، ويا لَحظ أنطونيو!

جرى تيموتييُو نحو مزرعة ريّو كْلارو، تحدّث مع الخدم، وعيّن امرأة أخرى لتكون قيّمة عوض تيزيكا. سوف يشتغل في حقل البُنّ معه نيكو، وسيأخذ ستين في المئة من الأرباح.

خمسون في المئة من المحصول، بالإضافة إلى عشرة في المئة من الحقوق التي خوّلها لنفسه. بالنسبة لنيكو، كان ذلك فرصة لتوسيع نشاطه، والاشتغال بعمل مربح في مزرعة واسعة من دون سيد، من دون جيرالدو.

علمت موارا بالخبر عن طريق تيموتيُو وبوساطة محام مسنّ، صديق قديم من أصدقاء عائلة باسوس. بيد أن خبر الأراضي لم يغيّر شيئا من ملامحها.

ـ لن أتعايش مع هؤلاء الناس وأتقاسم معهم أرباحي.

ـ لدي حقوق مدة عشرين عاما فقط، أما أنت، يا سيدتي، فحقوقك مدى الحياة. قاطعها تيموتيُو.

ـ فلتذهب إلى الجحيم أيها القروي الجاهل!

ـ هدّئي من روعك، سيدتي. طلب منها المحامي.

وكلما كان المحامي يشرح لها حقوقها، كانت موارا تزداد توترا. لم تكن تفهم ما معنى الاقتسام. وليعطوا شيئا آخر إلى تيموتيُو. في نهاية الأمر، لقد ورثا معا ضرورة التعايش. أكّدت أنها ستذهب لتسكن في المنزل قبل أن يستقر فيها أولئك القرويون مع عائلاتهم. سوف تأخذ معها بنات الهوى، بعد أن أصبحت اليوم قوّادة معروفة ومحترمة، ووريثة لأكبر ثروة في المنطقة. سوف تحوّل المنزل إلى ماخور: «ماخور موراراوْ». هكذا، لن يتسكّع في نواحي البيت أي مسيحي، أثناء النهار

على الأقل. وسيؤمّنُ عملُها اشتغال المزرعة التي لن يخرج منها شيء آخر غير البُنّ. ولا حبّة زائدة ولا يوم آخر عند نهاية الأجل.

ـ يا لَه من إرث سخيف.

58

كان نيكو يستعدّ للذهاب إلى المزرعة، ماريا تُسخّن أكلة المنهويت فوق موقد النار. اختار أنطونيو قبّعة، وكان متردّدا بين اثنتين معلّقتَين على الحائط. كان موسم الجني على الأبواب، ونيكو يفيض حماسة لم يسبق لها نظير منذ مدة طويلة.

ـ إنك مسرور أيّما سرور، سوف تظلّ اليوم كلّه مع أولئك النساء هناك. دمدمت ماريا.

ـ لن ندخل إلى المنزل حتى. قال نيكو متوترا.

ـ ما عدا تيموتييُو، ولكنه عَزَب مثلي. قال أنطونيو مبتسما.

ـ هل ستذهب أنت أيضا؟ سألت ماريا.

ـ نيكو لا يريد ذلك! بل إنه يرى أنه أمر سيّئ أن ألقي نظرة على فناء البنات.

أثارت الفكرة أنطونيو. نساء تضحكن في الفناء طوال النهار، تأخذن حمام شمس بتنّورات فوق الركبات. بعضهن كانت تستظلّ تحت شمسيات مرخّمة حتى وهنّ تحت شجرة الأفوكادو. يروقه ذلك. يجلس قرب البستان، ومن هناك يسمع أصوات النساء وهمس البيت، برغبة جامحة. لم يسمع قطّ رجلا في الأنحاء إلا من عمّال الحقول. من يدخلون، كانوا يفعلون ذلك ليلا لا غير. كان نيكو يكلّف أخاه بمهام، لكن في

النهاية يتركه ليتسلّى بالجميلات اللواتي لم يكن نيكو يعيرهن أي أهمّية. كان يعرف أن الأمر جيد، وأنه قائم لأنه لا بدّ من وجوده. كان تيموتييُو يأكل داخل المنزل والعمّال يتناولون الأكل نفسه، لكن في الحقول. كانت القيّمة التي حلت مكان تيزيكا تحمل إليهم الأطباق ملفوفة في المناديل.

ـ لقد حان الوقت يا أنطونيو، هيا أسرع. صاح نيكو.

لم يكن أنطونيو قد حسم أمره في اختيار القبّعة. سمعوا أحدهم يُصفّق بيديه في الخارج.

ـ ماريا، هناك أحد ما عند البوابة. سوف ننزل من الخلف حتى نذهب بسرعة.

خرج أنطونيو ونيكو عبر باب المطبخ. ومن القاعة، رأت ماريا إنييْدو عند عتبة الباب. ملابسٌ رثة، شعرٌ طويل، لحيةٌ لم تحلق منذ سنوات، وعينان لامعتان. صاحت ماريا منادية نيكو، فعاد.

ـ إنييْدو؟

كان أنطونيو يمشي خلف أخيه، فتوقّف متجمّدا في مكانه، كما لو أن الزائر كان راهبا أو أحد ممثّلي السلطة.

ـ حضّري له قهوة يا ماريا. طلب منها نيكو.

ـ جئتُ فقط أحمل رسالة. قدمتُ من الجهة الأخرة من الوادي، هناك أسكن.

كان نيكو على علم بما حكاه تيموتيُو من أحداث غريبة في الساحة. لم يعبر عن رأيه فيها، ولم تجد ماريا وأنطونيو أي جنون في كلامه، بل كذب شاب متبجّح. كان تيموتيُو يتمتّع بالجمال والطموح، وهما أمران مترابطان.

ـ الناس لم يصدّقوه، وأنا أيضا. قال نيكو.

ـ لقد مات جيرالدو يا إنيئِدو. نيكو، أنطونيو وتيموتيُو هم من يعتنون بحقل البُنّ. قالت ماريا.

ـ هذا من حق أنطونيو ونيكو في غياب جوليا. لقد قلتُ شيئا لتيموتيُو قبل موت جيرالدو.

ـ يمكنك أن تبقى هنا يا إنيئِدو، نحن ذاهبون إلى المزرعة، سوف نتحدّث عند عودتنا. قال أنطونيو بسرعة، ثم وضع قبّعته على رأسه، متوجّها نحو الباب.

ـ لماذا لا تسكنون في مزرعة ريّو كْلارو؟

ـ المنزل ليس في ملكنا، هناك عشيقة السيد جيرالدو تسكن هناك، هي من تملكه الآن.

ـ جوليا هي وريثة مزرعة ريّو كْلارو.

ضحكت ماريا؛ وانزعج نيكو وأنطونيو.

ـ سوف نتحدث عند عودتنا يا إنيئِدو. قال نيكو على سبيل الوداع.

ـ جيرالدو هو والد جوليا يا ولد. كانت أمك هي زوجته في السر. أعرف ذلك، لأنني أنا من كنتُ أساعدهما على أن يختبئا بأمر من السيد. لا يمكنك أن تتجاهل ذلك يا مالاكْياس.

اشتعلتْ جيرالدينا فعرق أنطونيو. جلست ماريا وكذلك فعل نيكو. راح إنيڤْدو يحكي ما يعرفه عن الفترة التي كان يشتغل خلالها في المزرعة، وعن علاقة دونانا مالاكْياس مع جيرالدو باسوس. وعن يقين دونانا بأن البنت الصغرى هي من صلب جيرالدو، لأنها اعترفت بذلك لإنيڤْدو يوم دعاها ليعمد ابنتهُ. إنيڤْدو الذي حاول أن يقترب منها، على أمل أن يتخذ منها امرأة له كما فعل جيرالدو. امرأة بوجه جاد، وجسد لاه. كما حكا لهم كيف صدّتهُ، على علمه بما يجمعها من علاقة بالسيد. بل حتى عندما هدّد بأن يشي بها، لم تلن. قالت إنه حب حيواني، عبثي، ولن تحظى بحب آخر، وإنها أكثر وفاء لأدولْفو من كلابه.

ـ جيروالدو هو والد جوليا! قالت ماريا.

ـ جيروالدو هو والد جوليا. قال إنيڤْدو مؤكّدا.

ـ لكن، لماذا ترك كل شيء للمومسات؟ ألم يتذكّر أن له بنتا؟

ـ مات دون أن يكون على علم بالأمر، أؤكد لك ذلك يا ماريا.

ـ لو كنت ابنه، لشعر جيرالدو بالخجل مني، وأنا قصير كما هو حالي. قال أنطونيو.

ـ عليّ أن أذهب. قال إنييْدو.

ـ تحطّم أنفسنا، وبعد ذلك تذهب. قال نيكو.

ـ أنا لم أبلغكم الرسالة بعد حتى. قال إنييْدو.

حكى لهم إنييْدو كيف خرج من الجهة الأخرى من الوادي فقط من أجلهم. وقال إن أهل السفينة يستعدون للإبحار مرة أخرى، وإن مياه السد تتأهب لتعود من حيث أتت وإن السفينة سوف تقلع من جديد.

كانت ماريا وأنطونيو يجدان صعوبة في فهم كل ذلك. اقترح عليهم نيكو أن ينتقلوا إلى السفينة وأن يسافروا معه.

ـ نيكو، هل كنت هناك يوم اختفيْتَ؟ سألته ماريا.

ابتسم إنييْدو، وقال:

ـ لو كان هنالك لكنتُ رأيتُه؛ أنا حارس المعبر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

59

شكرت جوليا ولوديريا اليوم الذي وضعتا فيه أقدامهما في المحفل الماسوني. منذئذ، تغيرت حياتهما. لم تعرف لوديريا رب عملٍ يكون لها صديقا، يتحدث معها عن الأشياء نفسها، ويحب الطبخ نفسه. كانت جوليا كالمفتونة، تبتسمُ طوال اليوم. كان ميسْياس يحب كثيرا أن تشتغلا معا خلف صندوق النقود. صارت الزبونات وفيات. كانت جوليا تزودهن بأفكار عن الفساتين، ولوديريا تقدم لهن نصائح عن الهدب الإيطالي الخاص بالسراويل من ثوب الكتان، أو مقابض التنّورات. وأشدّ ما كانت تكرهه جوليا الأزرارُ، لا تطيق اسمها ولا تتحمّل أن تمسكها بيديها.

ـ دعيك من هذه الحماقات، جوليا، إنها مجرد أزْرار.

ـ لا تذكري اسمها.

ـ كيف ستبيعينها دون ذكرها.

ـ أنت من يتكلف بالأزرار، أنا سأتكلف بالإبر.

كانت لوديريا تبدو متفهّمة بدافع الامتنان. لقد تخلّصت دفعة واحدة من ليلى ومن المجلى.

ـ هنا أرى أثوابا جديدة، كلما عاد ميسْياس من المعمل يحمل منها مجموعة. هناك، كان منشر الغسيل يحمل دائما الطابع نفسه.

كانت لوديريا تعرف الخياطة، وإن لم تكن جد ماهرة في هذا العمل. علّمتْ جوليا كيف تصلح الأثواب، وكيف تصنع الفساتين بالنظر إلى النموذج لا غير. بفضل أجرتها، كانت جوليا تقتني من الأثواب ما لم يحظَ بنجاح كبير في البيع. كانت لوديريا تملك مجلة تظهر فيها نجمات السينما، نسخة واحدة أخذتها من سلة المهملات في بيت ليلى. ممثلات بعيون زمردية، قوام ممشوق، وملابس سندسية. نسخت جوليا فستان حفل من القطن العادي. وكانت ترتديه عند صندوق الحساب. في البداية، هناك من رأى أن وقارها مبالغ فيه ما دامت ترتدي فستانا طويلا في جو حارّ. فترد عليهم إن القطن لا يخلق مشاكل، وإنه لشيء جميل أن يكون الجسد مغطى بكامله، دون إزعاج من نظرات الرجال. فبدأت الطلبيات لأن هذا اللباس المحتشم أعجب صديقاتها في الكنيسة، مع أنه يبرزُ الخصر. كانت جوليا تصنع نماذج لباس لكل قُدّاس. قُدّاس السادسة، قُدّاس التاسعة، قُدّاس العاشرة، قُدّاس يوم الأربعاء، قُدّاس يوم الأحد. لكل ساعة، لونها وشكلها. تحمّس ميسْياس للأمر، فوسّع محله حتى تصبح البقالة مستقلة عن المحل.

ـ لقد صار الأمر جدّيا، لا يمكن أن نخلط علب السردين بالقماش.

وضع مقصورات لقياس الملابس ومشجبا تُعلق عليه نماذج من الطلبيات. ازدهرت التجارة. علمت ليلى مصادفة بوجود المحل. مرت بنفسها على متن سيارتها رفقة السائق،

وكانت تجلس في الخلف، فتعرّفت الشابتين اللتين كانتا تستقبلان الزبونات. أرادت أن ترى، من باب الفضول، دون أن تعير اهتماما خاصا للأمر.

ازدهر محل الخياطة الوحيد في الحي. وكان له إعلان على جدار الكنيسة وآخر في محل ميسْياس نفسه، فحصلت جوليا على طلبيات من أحياء أخرى. لم تعد تشتغل في البقالة، فاضطرت لوديريا لتشغيل بائعة أخرى تساعدها. شغلت جوليا غرفة صغيرة في مخزن المحل، وضعت فيها آلة خياطة، رفوفا للأثواب، علبا من الورق المقوّى مليئة بالأزرار مع لافتة كتبت عليها «حَلْقات».

ـ حَلْقات. قرأت لوديريا بصوت عالٍ.

ـ نعم، لأنها شبه مدوّرة، أليس كذلك؟ حَلْقات.

حَلْقات من اللؤلؤ، حَلْقات شفّافة، حَلْقات مريلة، حَلْقات بذلة مدرسية، حمراء، وبيضاء، وسوداء، من كل الألوان والأحجام.

ـ جوليا، سوف أضع إعلانا في الجريدة. هل توافقين؟ سألها ميسْياس.

ـ نعم. سوف تساعدني لوديريا في تفصيل الأثواب.

وضع ميسياس الإعلان في جريدة ذات انتشار واسع: «جوليا مالاكْياس، خياطة المدينة. فقط من خلال مواعيد

محدّدة». كانت جوليا تمضي ساعات وهي تردّ على الهاتف، تؤكّد العنوان وتسجّل أوقات المواعيد. كانت الاتصالات تأتي من نساء من كلّ حدب وصوب. حين يصلن كن يدهشن لوجود بقالة قرب المحل، مع أن الدكّانَين كانا مفترقَين. كان أخذ المواعيد يعطي نوعا من الاحترام، يكاد يكون بذخا لكلمة «خَيّاطة». وكانت الزبونات يؤدين الثمن بعد استلام الفستان. ازداد وزن جوليا، وصارت أكثر هدوءا. وعبر آلة الخياطة كان يمر القطن الناعم، والسندس، والحرير. وكان خريرُ الخِيَاطة يأتي ويذهب وهو يخيط.

ـ أنا دينورا. أخذتُ موعدا مع جوليا مالاكْياسْ

أخذتها لوديريا حتى غرفة الخياطة. شعرت جوليا بدوار وهي ترى زميلتها في حمّامات المحطة.

ـ لم أكن أظنّ أنك أنت! جئتُ لتصنعي لي تنّورة، الكنيسة تشترط ذلك.

لم تكن جوليا تعرف عن دينورا إيمانها المطيع، وارتداء تنّورة بأمر من السيد القسّ. كانت نظرات دينورا تتفحّص كل شيء، ربما بحثا عن ذلك الرضيع الذي سلّمته بنفسها إلى الشرطة. تذكّرت جوليا أنها رأتها تتحدّث مع سارقة الرّضع. لم تكن تعرف عنها الشيء الكثير، فقط أنها طردتها بين عشية وضحاها، دون سبب. لا شيء. والآن، ها هي هنا، واقفة في جمود، تريد تنورة.

ـ مهنة جيدة، لم أكن أعرف أنك تمارسين الخياطة.

ظلت لوديريا هناك، تستغرب لعلاقتهما الحميمية.

ـ حتى أنا لم أكن أعرف ذلك، كيف حال ابنيك؟

ـ يقومان بأعمال صغيرة هنا وهناك. إنهما من دون عمل. الأصغر هو من رأى الإعلان في الجريدة.

بعد أخذ المقاسات، غادرت دينورا. بقيت جوليا تعاني من آلام في الرأس وضغط في العينين.

ـ لم تعجبني هذه، يا جوليا. إنها ثقيلة على القلب. قالت لوديريا.

كانت لوديريا مستعدّة لقُدّاس الساعة السادسة، حذاءٌ جديد وفي عجلة من أمرها. استعجلت جوليا، التي دهنت نفسها بالطّلق وارتدت فستانا جميلا كان دعاية للخياطة. كانت جوليا أنيقة، ثم خرجتا معا عبر الممر الجانبي. كان ميسْياس يدخن سيجارة عند باب المحلّ.

ـ هناك حركة كثيرة هنا! علينا أن نفكّر في طريقة أحسن لاستقبال الزبائن. يستحسن أن يكون هناك من يقدّم الشاي للناس.

كان ميسْياس يلاحظ أن الخياطة كانت تزدهر أكثر من محل البقالة. فكر في بيع سلع أغلى ثمنا وأكثر بذخا؛ لأن

زبائن جوليا لهن اهتمام -أيضا- بالعطور التي تكمل الملابس المصنوعة على المقاس.

ـ سوف نعود. قالت لوديريا وهي تمسك جوليا من ذراعها.

نزلت قطرة غليظة على جبينها، انزلقت أخرى عبر ظهرها، وسقطت ثالثة على ربلتيْ ساقيها فبللت جواربها. مطر، رعد.

ـ هيا بنا، يا جوليا، إن جرينا سنصل قبل المطر.

تخلصت جوليا من ذراعي لوديريا وجرت. ذهبت إلى الغرفة، غيرت ملابسها وارتدت قميصا من الصوف. ذهبت لوديريا إلى القدّاس وحدها. عند الذهاب، لم تتبلّل كثيرا، لكنها وصلت بملابس ثقيلة وداكنة، تلتصق بجسدها. في الغرفة، كان يتسرّب ماء من السقف فيحدث إيقاعا فوق علبة من مسحوق الحليب. كانت جوليا ملفوفة في الملاءة، تتصبّب عرقا، ووجهها شاحب.

ـ إنك تحترقين.

رفعت لوديريا الملاءة ورأت بقعة حمراء فوق القميص الصوفي، عند مستوى البطن.

60

ترك إنيئيدو ثلاثتهم في خبل وقلق استمرّ ساعات وأياما. كان نيكو يذهب وحده إلى مزرعة ريّو كْلارو. لم تكترث ماريا للأمر؛ لأن لامبالاة زوجها كانت تُشعرها بالأمان، ولن يفكّر في النساء وهو على تلك الحال. لن يفكّر في أمّه دونانا، عشيقة جيرالدو، ولا في جوليا، أخته غير الشقيقة.

ـ كانت أمي مغرمة به.

ـ ربّما أجبرها على ذلك.

ـ يا لَها من داعرة، سمحت لجيرالدو أن...

ـ إن جوليا هي مالكة المزرعة ولا تعرف ذلك! كان لها أب وانتهى بها الأمر في الميْتم.

ـ جوليا يجب أن تعود وتستعيد حياتها.

بالنسبة لنيكو، كانت خيانة الأم، عشق دونانا لجيرالدو، تُقوّض الحماسة التي كان بإمكان ثروة جوليا أن تحدثها في نفسه. وفي قرارة نفسه، كان يظنّ أنه من الأفضل أن تبقى أخته بعيدة، حتى لا يكون هناك خطر أن يتكرّر من خلالها أي تشابه مع جيرالدو بدل أدولفو. وكان أنطونيو يشعر بحرج أشد من حرج أخيه، الذي ربّاه السيد المُشغّل فكان يشعر تجاهه بحد أدنى من الاحترام. كان الأخ الأصغر يعاني كثيرا من هذا الخبر

الذي تأخر وقتا طويلا جدا قبل أن يصلهم.

ذهب أنطونيو تحت شجر الأفوكادو ذات الظلّ الوارف. مطّط ساقيه القصيرتين، واتكأ على خشب الشجرة النابض. تمدّدت جيرالدنيا تحت الظل. لم يكن جيرالدو يفارق ذهن أنطونيو، الذي كان يذكر وجهه أحسن ممّا يذكر وجه أمه. لو أن جوليا الطفلة بقيت في المزرعة، لحظيت بعناية تيزيكا. فالبنت الصغيرة تحظى بحماية أكبر؛ لأن الرجال يشفقون على البنات.

حرارة من دون ريح تحت شجرة الأفوكادو، الأوراق في مكانها، وبيتُ عنكبوت يلمعُ. ارتعشت جيرالدينا بكاملها. وحدها فقط. لم يشعر أنطونيو بأي شيء؛ لأنها لم تكن ملتصقة به. حبة أفوكادو ناضجة سقطت وسط حبات أخرى، فوق وحلّ أخضر زيتي. سمع أنطونيو أزيزا، لكن لا شيء يستطيعُ أن يمنحه اسما، معنى. أزيز يشبه أزيز مذياع يبثّ من بعيد. استقرّ الاهتزاز، علا ثم انخفض، واستقر في الأمواج المتوسطة والمنخفضة، لثوانٍ في الأولى، ولثوانٍ أخرى في الثانية. كانت تلك هي الإشعاعات فوق الصوتية التي ترسلها السفينة من الجهة الأخرى من الوادي. وكانت خفيفة، مع ذلك، بالنظر إلى حجم السفينة.

61

رغم سبات الريف، استعاد نيكو صحوهُ مثل ماء يهدأ بعد السقوط. اليوم، صار التوأمان يمشيان، في سنّ الذهاب إلى المدرسة تقريبا، وهما قادران على تحمّل السفر. أنطونيو، هو، وماريا والطفلان يمكنهم أن يبحثوا عن جوليا.

ـ لأجل ماذا يا نيكو؟

لم تكن ماريا ترى من سبب للخروج على وجه السرعة، إغلاق البيت، والمشي عبر العالم من أجل شخص واحد فقط.

ـ إننا لا نعرف المكان، يمكن أن نتيه، وقد يكون الأمر معقدا للغاية. مكتبة سُر مَن قرأ

كانت ماريا تخيط غطاء سرير مرقّع. معيّنات مزهرة بها خطوط، ما فضل من ثوب الفساتين التي كانت تصنعها. كان غطاء سرير للأطفال. كان أنطونيو يتناول حساء ذرة فسمع الحديث، وصاح من المطبخ:

ـ نذهب نحن الاثنين يا نيكو.

قام نيكو بعمليات حسابية، فضرب وجمع وخصم شيئا ما.

ـ لن أترك ماريا وحدها، سوف نذهب جميعا. أو تبقى معها أنت وأذهب أنا.

أضافت ماريا غرزتَين لتكمل الفسيفساء. غسل أنطونيو الصحن. وسرعان ما خلدوا للنوم، من تعب اليوم السابق ومن تعب اليوم الآتي. الصباح رطب، وشعْرُ أنيزْيا قصير مجعّد ينتصب خصلات شقراء محترقة. كانت أنيزْيا صورة حية من نيكو وأونوفْري من ماريا. كان أنطونيو يحضر القهوة، ونيكو ينتظر في القاعة. ماريا وأونوفْري لا يزالان في السرير، بينما أنيزْيا تجرجر نعلا وغطاءَ وسادةٍ.

فتح نيكو نافذة واحدة، كانت كافية ليدخل النور دون أن تتسرّب برودة الفجر إلى البيت.

ـ لقد جفّت مياه السّد. قال نيكو وهو يسند مرفقَيه إلى النافذة.

ـ مع رائحة الرطوبة هذه؟ لقد أمطرت كل هذه الأيام.

ـ أنطونيو، لقد اختفت المياه!

ترك أنطونيو المصفاة تقطر ماء، وصعد فوق المقعد قرب النافذة. كان الاثنان يديران ظهرهما إلى أنيزْيا، التي ضحكت ممّا بدا لها مزاحا. وجامدَين، نظرا أمامهما.

ـ لقد استعملت شركة الكهرباء كل مياه السدّ.

ـ أنطونيو، لم يعد هناك أيّ شيء هناك في الأسفل! فأين ذهبت مياهنا؟

ـ لا بدّ أن عمال شركة الكهرباء يقومون بمعالجتها، وسيعيدونها.

ـ لقد نمنا والسدّ هناك في الأسفل، الآن، بعد أن استيقظنا أصبح كل شيء كما كان من قبل.

لم تُبْد جيرالدينا أي ردة فعل، وكانت ماريا تنظر إلى تلك الأرض الجافة كما لو أنها تنظر إلى حقل الذرة.

ـ أوه! لقد أصبحت هكذا فعلا.

ظل نيكو صامتا، وأنطونيو يتساءل.

ـ المياه التي نستعملها نحن تأتي من الشلال، هذا الأمر لا يهمّنا.

في الوحل كانت هناك أسماك ميتة وأخرى تلفظ أنفاسها. لامعة، حراشيفها تحت الشمس، ومئات من الشذرات متناثرة فوق الأرض. البيت الصغير عند أعلى سيرّا مورينا، قرب الصخور، لم تَسُؤْ أموره ولم تتحسّن بتغيّر حاله. ضجيج عند البوابة، أصوات حوافر خيل، تيموتيُو.

ـ نيكو، تعال، سوف نبحث عن إنييْدو، لا بدّ أنه يعرف أين ذهبت المياه. قال تيموتيُو.

ـ لا أستطيع، يجب أن أبحث عن جوليا.

ـ قبل ذلك، علينا أن نعرف مصيرنا. قال تيموتيُو.

تبع نيكو تيموتييُو حتى بلغا الجهة الأخرى من الوادي. الخيل فزعة، الكلبة ذات الشعر الكثيف تسبقهما وهي تحرك ذيلها. لم يتغير الكهف شيئا، كما لم يتغير إنييْدو قيد أنملة. كان هناك جالسا، ينظر إلى الأمام.

ـ هل تسكن هنا منذ أن أصبح الضوء هناك؟

ـ نعم.

كان تيموتييُو عند مدخل الكهف، على شفى الهاوية. لاحظ إنييْدو نيكو وهو يرقب السقف، وأواني المطبخ، والقدر المملوء بأحصنة البحر الجافة.

ـ أي حيوان هذا؟

ـ حصان البحر. يظل دائما صغيرًا هكذا.

ـ هل ينكمش؟

ـ يمكن أن ينكمش. من الأحسن أن تلتحق بتيموتييُو.

اقترب نيكو، فاستدار تيموتييُو وأشار إليه بالأصبع أن يلزم الصمت. تقدم نيكو حتى بلغ الحافّة. كان البحر يغطي كل شيء، السفينة راسية هناك بعيدا، أمواج صغيرة ترتطم بالصخور، عند قدم الكهف.

ـ أهذا هو البحر؟

أكد إنييْدو ذلك وهو يضع حصان البحر فوق حساء المنهويت. ثم قدم الصحن للكلبة.

ـ نعم، إنه البحر، يُحدِث ضجيجا بسبب الريح التي تمر هناك في الأسفل. في النهر، الماء يجري، أما في البحر فالمياه طريقة لحساب الزمن؛ لأن كل موجة تدوم دقيقة واحدة.

انحنى نيكو.

ـ هذه المياه جاءت من السدّ، أليس كذلك يا إنييْدو؟

ـ إنها لم تأت، بل عادت. السدُّ لم يكن مكانها.

ـ وهذا الشيء، هناك أمامنا؟

ـ السفينة؟ إنها مستعدّة تقريبا لترفع المرساة وتمخر أعالي البحر.

ـ وهل يعلو البحر؟

ـ نعم، يعلو ويكبر لمن يركبون السفينة، نعم.

في سيرّا مورينا، انتهى أنطونيو وماريا من تحضير دجاج بالثوم، سائل الخضر يحرق لهما اللسان وطرف الفم. هناك في الأسفل، كانت الأسماك لا تزال تلمع جامدة. الشمس تنزل ببطء فوق قمم سيرّا مورينا، بالكاد لمستْها وسرعان ما انزلقت في الخلف، مثل الأسنان وهي تعضّ الثوم.

ـ سوف يعودان بسرعة، لن يتركا المزرعة للنساء.

ـ إنهما الآن وراء إنييْدو الذي لم يكن قطّ رجلا لائقا؛ لا يمكن للمرء أن يعيش مثل حيوان وسط الأدغال.

قام الاثنان معا بوضع أنيزْيا وأونوفْري في السريرَين الصغيرَين، ثم ذهبا إلى المطبخ ليغلقا فوهة موقد النار بصفائح من حديد.

ـ سوف أشعل الفانوس. قالت ماريا.

بذراعيْها الممدوتَين كي تمسك بمصراعَي النافذة، رأت المدينة غارقة في الظلام. من دون مياه، لم يعد هناك ضوء في المدينة. فلم تشعل ماريا الفانوس.

ـ من الأحسن أن ننام. غدا، سوف نرى ما نفعل.

62

تعرّضت جوليا لنزيف، فأخذها ميسْياس إلى المستشفى حيث علمت أنها حامل من ميسياس، كما أخبرتها الممرضة. لم تكن لوديريا تخفي دهشتها، وهي خرساء قرب رب عملها. كانت جوليا تنام نوم بنّائي الأهرامات، واستيقظت على ميسْياس يداعب يدها.

ـ لوديريا؟

ـ بقيت في المحلّ... هناك زبائن.

ضغطت جوليا على يده. عانق ميسْياس هذه الأم الواعدة، سيدة بيتها التي سوف تنجز كل مهام المنزل. لقد سامح زلّتها الوحيدة، يوم أرضت فضول لوديريا كمن يشبع جوعا عند الضرورة. وكان ذلك عربون وفاء وتواطؤ، ليس تجاهه بل تجاه لوديريا. أما معه، فقد كانت بضعة أشهر كافية لتنشأ الثقة بينهما. لم يؤثر النزيف في الطفل الذي كان في شهره الثالث. لم يجدوا سبب النزيف، لكن عليهما أن يحتاطا؛ لأنه ربما يكون ذلك علامة على أن الجنين يمكن أن يمتنع عن الخروج إلى العالم.

انتفخ البطن، وتمدّدت أنسجته. كانت لوديريا تنجز معظم الطلبيات، ولم تلاحظ الزبونات أي فرق. كانت جوليا لا تزال تقوم بتصميم الأشكال التي تنقلها من المجلات. استأجر

ميسياس مستخدمة أخرى، كلّفها ببيع البقالة عوض لوديريا. بالنسبة للنساء الحوامل، كانت جوليا تنقل الأشكال وتوسع الحزام. وضع ميسْياس لافتة في المحل للإعلان عن التخصص الجديد لجوليا مالاكْياس، «معاطف طفلات، معاطف أطفال، قبعات بشرائط، قلانس عادية، شالات». كانت جوليا تجلس كل صباح تحت الشمس في الساحة قرب الكنيسة، تستغل حصة الساعة الثامنة لتقوم بالتقرّب والاعتراف. أكّد القس أنها تشبه سيدة قديسة، مما يجعل منها ليس مجرد امرأة من لحم ودم، بل مُصلى منذورا للعبادة.

جاء الزبائن يحملون هدايا، من مصاصات أطفال، وحفاظات، وملابس، وحمام صغير. قام ميسْياس بتوسيع خلفية المحل، وحَوّل الغرفَ الضيقة والملحقات إلى سكن. لاحقا، سوف يضيف سلالم أخرى ليصبح البيت عمارة من ثلاث طوابق. وسيرزقان بأبناء آخرين إن كانت تلك هي مشيئة السماء. ذلك الأمان الذي كان ميسْياس يقدّمه لجوليا، وتلك العلاقة الغرامية بينهما في سرّ تامّ جعلا لوديريا تُكوّنُ عن جوليا صورة امرأة أكثر نضجا، مستعدة لتعطي ثمارها.

تزوّجا على الطريقة المدنية، من دون أن يعلّق أحد على الأسباب. أخذا موعدا عند العدل، وبطنها يزداد انتفاخا. جعل الثقل جوليا تمشي مثل بطّة، مع عزّة النفس التي يمنحها الانتظار الحلو. وهو ما كان يمنح قيمة أخرى لمحل ميسْياس؛ لأنه صار يرتاده يوما بعد آخر زبائن أحسن وضعا وسيدات مرموقات.

جوليا، السيدة ميسْياس الآن، سوف تقيم زفافها في المحفل الماسوني. لكنها وضعت شرطا لذلك: بعد بضعة أشهر على ميلاده، سوف يتلقى الطفل تعميدا في جرن الماء الروماني.

63

كانت المدينة من دون ضوء، وبعد إشارة السفينة تحولت جيرالدينا إلى مادة أكثر أثيرية، لينة ومعتدلة. كان أنطونيو يشعر بها على شكل حكاك في ربلتيْ ساقَيه، وكلما حكهما كان يحرك ذرات مادتها.

كان جيرالدو داخل التابوت، وقد تحوّل جسده إلى جحافل من البكتيريات. الأرض تتغذّى على ما ينبعث من عظامه التي لو كانت تستطيع لسكنت غرفة أكثر ظلاما وأقل أحداثا. ومن الجسد نفسه كانت تخرج الجحافل الجائعة. نهاية جيرالدو، من الداخل نحو الخارج. كان يتفكّك من الأطراف نحو الداخل، فلا يشعر برائحة التحوّل لكنه يسمع أصواتها الدقيقة. من حين لآخر، كان يعرف أن الخشب المنخور والاتصال بالتراب يبتلعان وجوده، حتى اكتمل الابتلاع وتحوّل جيرالدو إلى دُبال. ومن حين لآخر، كان ينزل أكثر إلى أن بلغ القشرة المائية عند السطح.

تجمّد جيرالدو في المياه الجوفية، وكانت تلك آخر حالة مرت عليها مادتُه عبر أقماع التعفّن. وعبر روابط أيونية دقيقة، انضاف إلى أملاح المياه التي ستمر عبر المدينة. كانت طريقا قديمة لا تبلل أقدام البشر ولا جذور الخيزران. كانت الفرشة تتزايد، وهي تلتقي بفرشات أخرى أكثر دقة، لتكون غذاء لأشجار ورود السيدات في البلدة، حتى تصل إلى مزرعة نيكو.

فقط عند مرورها كانت الفرشة تعطي ماء لصهريج البيت، هناك حيث ذهب أنطونيو، كما في مرات عديدة أخرى، ليملأ السطل. وبما أن جيرالدو لم يكن قد ارتبط تماما بالأنزيمات، ولم يرتبط تماما بالماء أيضًا، فإنه لم يذب. كان غير قابل للذوبان في الماء ذي الأصل الصخري. لم يكن جيرالدو هو البئر، لكنه كان هناك. ودون أن يعلم بذلك، التقطَهُ أنطونيو في السطل.

صبّ أنطونيو الماء على الجزء العلوي من المصفاة الفخارية، ولمَّا لم يصل جيرالدو إلى قُطر أي شائبة من الشوائب فقد سقط في حيز الماء القابل للشرب. بعد بضع ساعات، انتهى به الأمر في كوب زجاجي، فشربَ أنطونيو جيرالدو.

بعد بضع ساعات، كانت رقبة أنطونيو ترشّح عرقا حيث كانت جيرالدينا تتكوّر بين ثنْيتيْن من ثنيّات الجلد كأنها سرب من القُراد في وسادة.

سخن جسدُ جيرالدو في جسم أنطونيو واندثر. كان ابن جيرالدينا في النقطة العاشرة من العرق. رفع أنطونيو يده محاولا أن يجفّف العرق على رقبته حيث شعر بالحكّة، فكسر الفقاعة. لم يعد ثمّة من فرق بين جيرالدينا وجيرالدو، إذ امتزج الماء بالماء، وكانا معا يقتسمان وسيلة النقل نفسها. كانا معا متّحدَين في عرق السائق، عند أطراف أصابع أنطونيو. وبحركة

انزعاج، رمى القزم الاثنين بعيدا، تطايرا في الهواء، وأخذ الابن وأمه يرقصان.

حطّا فوق الأرض. عادت ماريا مالاكْياس من الفناء حيث ذهبت لتجمع الملابس الجافّة. اضطجع أنطونيو في الأريكة ونام.

64

كان نيكو منهكا، يكاد يكون عجوزا، كما لو أنه عاد من حرب وضعت أوزارها. رأى في الأحلام والديه؛ كانا معا فوق عربة يجرها ثوران في طريق يحملان حصاد القمح. حرّكا يديهما تحية له، فردّ على تحيتهما. استيقظ عازما.

ـ ماريا، حضّري الطفلين، سنذهب.

ـ إلى أين؟

ـ إلى السفينة. إنييْدو يعرف أعضاء الطاقم، وسيطلب من القائد أن ينتظرنا.

استمرت ماريا تنظف بالصابون قميصا داخل الصهريج، ونيكو إلى جانبها.

ـ الرحلة آمنة، هذا ما وعدني به إنييْدو.

ـ اذهب وحدك يا نيكو؛ أنا لن أضع طفلا من طفليّ في مكان يتحرك.

ـ إن لم نذهب الآن، سوف تسوء الأمور. إن سفينة كبيرة كهذه لا تقلع كل يوم.

انضمّ أنطونيو إلى حديثهما.

ـ هذه أشياء يقولها إنييْدو. وماذا عن المزرعة؟ هل ستترك

كل الحمل على عاتق تيموتييُو؟

ـ تيموتييُو سيذهب بدوره.

ـ حتى تيموتييُو؟. قالت ماريا وقد توقّفت عن غسل القميص بالصابون.

ـ ماذا رأيت هناك؟ سأله أنطونيو.

ـ السفينة لها درابزين من ذهب وهي أكبر من تلك المدينة هناك في الأسفل، إنها شيء من عالم آخر، شيء يثير الجنون. هل سبق أن كذبت عليك يا ماريا؟

ـ هذه طبيعتي، إنني أحب العناد.

عانق نيكو ماريا.

ـ وجوليا؟

ـ سوف نلتقي بها في الميناء يا أنطونيو.

لم يكن مهما ما يقوله نيكو، لكن الأهم هو النبرة الحازمة لكلماته. فأيّا كان ما يقوله نيكو، كانت سلطته تتجلى أكيدة في أفعاله اليومية المستمرة. كان أنطونيو وماريا يريان فيه القائد، ولا يمكن أن يكون ثمة قائدان. فبين ماريا وأنطونيو كان على نيكو أن يقرّر الوجهة والطريق.

وضعت ماريا في العلب أغراض البيت، وأواني المطبخ،

واحتفظت بالملابس في صندوق. كان أونوفْري وأنيزْيا ينتعلان حذاءين جلديين أصبحت تتخللهما خطوط من كثرة الاستعمال. سوف ينتعلانهما، وسيلينُ الجلد مع المشي. وضع أنطونيو قبّعتَيه داخل علبة: قبّعة للطريق وأخرى عند الوصول إلى الميناء. حضّر نيكو مأكولات بالطحين، مع لحم محفوظ في شحمه وحلوى بفاكهة الجوّافة لإنييْدو.

سوف يلتقون بتيموتييُو في الكهف. أمّا بخصوص التفاصيل، فقد أكّد لهم نيكو أنهم سيركبون بمجرد وصولهم؛ لأن إنييْدو كان قد رتّب كل شيء يوم البارحة. وأنه سيكون هناك بحار ينتظرهم على متن زورق قبالة الكهف. كما أن ثمة طريقًا تؤدي إلى القارب، وأن مثل هذه الأمور تحدث من حين لآخر. وقد شرح له إنييْدو أن هناك دائما من يساعد ويعين الشيوخ والأطفال على الصعود إلى السفينة.

تقدموا ببطء عبر منحدر جبال سيرّا مورينا. لقد انطلقوا باكرا؛ وسوف يبلغون الكهف عند منتصف النهار، هذا إن نفَرَ الطفلان من المشي، وإلا، فقد يصلون قبل ذلك بكثير.

65

كانت جيرالدينا وجيرالدو يسافران داخل قبعة أنطونيو، وهما أقرب إلى الشمس من شعره. كان الطفلان بين الأذرع وأحيانا يمشيان، لكنهما تعبا. كان كل شيء جديدا بالنسبة لماريا وأنطونيو. عند المدخل الجانبي من الكهف، كان إنيئيدو ينتظرهم فوق أريكة من خشب وتبن. وفي ركن من الكهف، كانت أوراق النخل تشكّل أسرّة وضعت فوقها حصائر من خيوط ليفيّة. كان هناك من الفضاء ما يكفي لإيوائهم جميعا. كثير من المقالي، وموقد نار بُنِيَ مؤخرا. خشب تدفئة متراكم، الأرضية مكنوسة ومبللة حتى لا يتطاير منها الغبار، نبات ألْوة غُرسَ في علبة زيت. توقّف نيكو في مكانه. كانت ماريا، أنيزْيا، أونوفْري وأنطونيو يشْتمّون النسيم، فتتّسع أنوفهم. تغيّر الضغط الدموي عند ماريا، فتبدّل مزاجها.

ـ هنا؟

ـ ادخلي، ولا تسمحي للطفلين بالاقتراب من الحافة، تفصلها أكثر من ثلاثين مترا عن الأسفل.

أمسكت ماريا الطفلين من كتفيهما. تقدّم نيكو نحو الحافّة، لمح السفينة في المكان نفسه، هناك في الأفق، فدهش لتلك المسافة التي لا تتغيّر. لم ير زورقا ولا بحّارا في الأفق.

ـ ماريا، الغداء جاهز.

ـ لاحقا يا إنيئدو! نشعر بدوّار المعدة بعد رحلة في عربة الثورَين، فكيف سيكون حالنا فوق السفينة...

قدّم إنيئدو الأريكة إلى ماريا التي كانت تشعر بدوار، فجلست عليها. وقفت أنيزْيا على أطراف أصابع قدميها حتى ترى ما فوق موقد النار. فطيرة بلحم الدجاج المشوي داخل قدر من طين، كوراوْ وإبريق قهوة ممتلئ. التقط أونوفْري قطعة خشب من الكومة ليرسم خطوطا على الأرض. وبحركات بطيئة، كسلى، كان أنطونيو، والقبّعة في يده، يلاحظُ الرسوم في السقف: خيول لها خياشيم، بومات أكبر من الخيل لها عيون جاحظة تتوسّطها سنابل ذرة. وكانت جيرالدينا وجيرالدو لا يزالان يُعشّشان في القبعة.

ـ تعال لترى يا أنطونيو.

نادى نيكو على أخيه ليرى السفينة التي سوف يقضون فيها الأيام القادمة.

ـ إن السفينة قد تأخرت عن موعدها، أليس كذلك يا إنيئدو؟

كان إنيئدو يحرك القدور، فوضع الفاصوليا كي تنتفخ. ولأنه قزم، فقد احتاج أنطونيو لمزيد من الوقت كي يدرك الأفق. ساقان قصيرتان، وخطوات أكثر قصرا. من النقطة التي لمح منها نيكو السفينة، لم يكن أنطونيو يرى سوى المياه وحافة الهوّة. تقدّم نحو المكان الذي كان يدخل منه الضوء.

في يوم واحد من السنة، كانت الشمس تدخل إلى بيت إنييْدو كلّه. حينئذ، يعم الضوء كل أرجاء الكهف فتصبح عيون البومات الزرقاء مسابح. يدوم ذلك مدة تفْتيت كوز ذرة واحد، لكن حين يمر المرء إلى تفتيت الكوز الثاني، يكون الضوء قد تقلّص تحت القبة.

توقّف أنطونيو عند شفير الهوّة ولم ينظر إلى الأسفل خوفا من العلو. أغمض عينيه، وشدّ يديه.

ـ يمكنك أن تنظر.

فتح عينيه وراح ينزل بنظره. أغمض جفنيه عند المستوى الذي ينبغي أن يكتشف فيه السفينة، ثم فتحهما على المياه البحرية. وكما كان شأن أسرة مالاكْياس، كان جيرالدو وجيرالدينا في حالة عبور، في منزلة بين هواء المياه العذبة وهواء المياه المالحة.

ـ كم مترًا يفصلنا عن الأرض؟

ـ عدد لا بأس به.

لم يكن نيكو يرى ردّ فعل أنطونيو، الذي شدَّ انتباهه مركب كان يعطي إشارات بأنه يقترب. كانت ماريا تأكل الكوراوْ، الذي تَفضّل به إنييْدو عليها وعلى الطفلين.

ـ الأطفال لا يذهبون إلى هناك، ينظرون من بعيد، وإلا يكن مصيرهم الموت. كان إنييْدو يحاول أن يقنع أنيزْيا وأونوفْيري

بألا يتجاوزا نقطة معينة. ولمَّا كانا شبه نائمين، وتفكيرهما بطيئًا، فقد كان من السهل إقناعهما وتطويع إرادتهما.

ـ هل يمكن أن نموت إن نظرنا فقط؟

ـ كلا، ينبغي أن نسقط أولا.

كانت فتحة القبّعة موجّهة نحو ساقيه فشعر أنطونيو بتهوية على ركبتيه. كان جيرالدو وجيرالدينا يختنقان من النسيم والظلمة. فتح ذراعيه القصيرتين، أقصر من ذراعَي أنيزْيا وأونوفْري. أخذ نفَسا عميقا، نظر إلى السفينة ورمى بالقبعة بعيدا.

66

أعدّت جوليا حقيبتها لتدخل إلى قسم الولادة. كانت هي قد ولدت في البيت، من دون طبيب، واقترحت أن تلد في غرفتها. لماذا لا يولد ابنها كما ولدت هي أيضا؟ لم يتقبل ميسْياس فكرة أن يرى ابنه النور في خلفية محل تجاري. سوف تذهب جوليا إلى قسم الولادة حتى تخضع للمراقبة على يد الطبيب الذي يشرف على فحوصات ما قبل الوضع، وهو الذي حدد لها اليوم والساعة. كانت الحقيبة جاهزة عشية الوضع، وميسْياس ولوديريا يشرفان على صندوق الحساب في المحل. بدأت الأوجاع خفيفة، ثم قوية، مثل مجموعة من الفيلة تمشي فوق البيض. كان الضغط قويا على جيب بطن جوليا الذي تمزّق وهي جالسة على كرسي في المطبخ، فمشت عبر الممر حتى بلغت باب المحل. سمعها ميسْياس فجرى وأخذ الحقيبة من الغرفة الضيقة.

في قسم الولادة، كان الطبيب منشغلا مع أُمّ أخرى. كانت ولادةُ جوليا سابقة لأوانها، ولم تكن في حسبانه. تحدث عن عملية قيصرية، يفتح بطنها ويغلقه في الحين. وضعت جوليا في الغرفة رفقة الممرضة. ظل ميسْياس متوترا في قاعة الانتظار، لكنه أبى أن يرى جسدها يتألم. تمددت فوق السرير كي تسترخي، وطلبت منها الممرضة أن تتنفّس بعمق. لن يتأخر الطبيب كثيرا. وُلدَ الرجل الصغير بعد وخزة أو وخزتين من

الألم القوي، انفتح خلالها جسدُها أكثر من أي وقت مضى. في الأخير، عندما جاء الطبيب، كانت جوليا تأخذ مصلا عبر عروقها وميسْياس يداعب يدها.

ـ لقد خُلقت لتضعي أبناء يا سيدتي. قال الطبيب كأنه غاضب من استقلالية جوليا.

ـ متى يمكنها أن تعود إلى البيت؟

ـ غدا باكرا جدا، فقط نحتاج قليلا من الوقت لإجراء بعض الفحوصات الروتينية على الرضيع.

جاءت الممرضة تحمل المولود في ملاءة، وأسكنته فوق صدر جوليا. بكى ميسْياس من الفرح. كانت جوليا تشتم رضيعها، في تعرُّف شبيه بما تفعله الثّدييّات. رائحة اللحم الدافئ والطري، صرّةٌ تخفقُ.

ـ ينبغي أن يبقى الرضيع يوما آخر، حتى أجري عليه مزيدا من الفحوصات الدقيقة.

ـ هل هناك من مشكل؟

ـ إنه بخير أيها الأب، هي احتياطات نتخذها حتى لا يتعرض الطفل لمشاكل في المستقبل. لا داعي للقلق.

كانت الفحوصات مكلّفة، واستغرب ميسْياس أن يقضي الرضيع يوما إضافيا في المستشفى. كانت جوليا قد حصلت

على الإذن بمغادرة المستشفى، ويكفي النظر إليها لرؤيتها تفيض صحة وعافية. نهدان ينبجس منهما حليب حلو، وجلد ناعم يضمن راحة الصبي. نامت معها لوديريا في قسم الولادة. عاد ميسْياس إلى المحل، لأن التجارة قد تتوقف من دونه. في اليوم الموالي، سمحوا لجوليا بمغادرة السرير، وأخبروها إنه يمكنها، إن رغبت في ذلك، أن تعود لاحقا لتأخذ الرضيع. بيد أنها قررت أن تبقى حتى يحرروا الصبي، كما أنه ينبغي أن تخفف عن نهديها. انتهت الفحوصات، وذهب ميسْياس ليبحث عن أسرته.

بقيت لوديريا كي تعد المهد، تسخن الماء لتحمم الرضيع، كما عجنت الخبز، وطبخت حساء باللحم. كانت مكلفة بالسهر على راحة جوليا. وكانت تتخيل نفسها وهي في مذبح الكنيسة تعمد ابنها بالمعمودية. فمن غيرها سوف تختارُها جوليا عرّابة لابنها؟

ميسْياس وجوليا، الرضيع بين ذراعيها، جالسان قبالة الطبيب، الذي يحمل كومة من الأظرفة بداخلها نتائج فحص صفائح الدم واللعاب.

ـ الطفل قزمٌ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

67

منذ عدة أيام ونيكو مع أسرته داخل الكهف. كان إنيئيدو واثقا من أنهم سوف ينتظرون السفينة، لذلك أعد المؤن لاستقبال آل مالاكْياس.

ـ يجب أن ترتفع المياه حتى يصل الزورق إلى هنا.

ـ لو أخطرْتنا، لجئتُ بعد هذا. قالت ماريا غاضبة.

ـ الماء يتصرف حسب هواه، أنا لا أتحكم فيه.

لم تكن شروط راحتهم سيئة، ولم يحاول أونوفْري وأنيزْيا أن يقتربا من الحافة ولو مرة واحدة. كانوا كأنهم مخدّرين، جاذبية أخرى تحت سقف البومات. الجسد والفكر يستعدّان لأي تغيير، مثل الحمى قبل أن تنفجر البثور، مثل الدوار قبل القيء، مثل التعافي قبل الموت.

الكلبة ذات الشعر الكثيف، التي تضطجع أحيانا قرب أونوفْري، كانت تظهر أيضا في الأفق، عند مقدمة السفينة. السفينة أقرب، والبحر مرتفع قليلاً.

ـ كيف يمكن للكلبة أن تكون هنا وهنالك في الوقت ذاته؟

ـ هذا الحيوان يحيّرني، أظنّ أنه حيوانان اثنان.

ـ كلبتان توأمان.

ـ مثل المرأتين العجوزين.

وكأن أحدًا ناداهما، دخلت العجوزان التوأمان إلى الكهف. كانتا قد صعدتا عبر مسالك غابوية في الجبل. كان الشلال مغطى بالبحر، ووحدهم من كانوا في الأعالي تمكّنوا من النجاة. كانت المرأتان ترتديان الملابس نفسها، المريلتين كلتيهما، تغطيان رأسيهما بوشاحيْن متطابقين.

ـ مزيدا من الكعكة والرّز للطفلين. كم كبرا كثيرا!

ـ هل تعرفانهما؟

ـ رأيناهما يولدان من النافذة.

ـ كاد جيرالدو أن يقتلكما بالبندقية. ذكّرهما أنطونيو.

جلست العجوزان فوق أوراق النخل اليابسة. جثا أنطونيو على ركبتيْه بالقرب منهما، يكاد يخرُّ من هذا الحضور المضاعف الذي جاء يحمل طعاما. كان يعرفهما في حقل الذرة وكان دائما يرغب في الاقتراب منهما.

ـ أين تسكنان؟

ـ في الشلال.

ـ ليس هناك من شلال الآن، أصبح كل شيء بحرا.

ـ الشلال ليس هو الماء فقط، هناك أرض الشلال، ونحن

ننام وراء ستار المياه المتساقطة. أثناء النهار، ننتقل من هذا المكان إلى هناك، ومن هناك إلى هذا المكان.

ضحكتا الضحكة نفسها، وكانت لهما الحبال الصوتية نفسها.

ـ عندما انتقل البحر إلى جهتكم، كان لدينا نهر، ومراعٍ وقطيع.

ـ لا بد أن تيموتييُو قد وصل. قال إنييْدو متنهّدا.

ـ لقد افتعل كل هذا كي يجعل نيكو يغادر المزرعة، يترك حياته، ويأتي إلى هنا. قالت ماريا.

لاذ نيكو بالصمت، لأنه لم يكن لديه ما يرد به عليها. طرح أنطونيو فكرة.

ـ ما علينا سوى أن نعود إلى البيت.

نهض إنييْدو من الأرض.

ـ لن تستطيعوا ذلك، بدأت مياه البحر ترتفع.

ودّعت العجوزان التوأمان واختفيتا في الأدغال. نام أونوفْري وأنيزْيا نوما عميقا. ماريا، نيكو وأنطونيو تثاءبوا.

ـ لابد أنه وضع شيئا ما في هذا الطعام حتى يسلبنا عزيمتنا. إنك تصدق أي وعد يا نيكو.

68

دفع أنطونيو جيرالدو وجيرالدنيا فسقطا في البحر. ظلاّ يطفوان ساعات طوال داخل القبعة التي كانت حافتاها نحو الأعلى، كأنهما ساقان في ماخور تستقبلان الضوء في المنطقة المظلمة.

إن احتراق الشمعة لا يعني أن الشمع لم يعد له وجود. مع أنهما كانا شيئا واحدا، فقد كان لجيرالدو فرديّته، شمعه الخاص. كانت جيرالدينا متعوّدة على تغيّر أحوالها، فلم تكن تواكب تهيّج ابنها. كانت حركته، وقلقه الكهربائي يزعجانها. هذا التقارب بين الأم والابن، خارج المناسبات الضرورية، وهما مرتبطان فقط بأواصر الدم، لم يضمن التحامهما. لقاء منحرف، انزياح من جيرالدو عندما وجد بالمصادفة أمه فوق رقبة أنطونيو.

كان مدارُ جيرالدو ينفلتُ من مدار جيرالدينا، تماما كما تصطدم غيمتان وينزل المطر، فتفنيان بعضهما من أجل وظيفة أخرى. مرتخيةً بسبب استقلاليتها المستعادة، نفذت جيرالدينا من عيون الشبكة واجتازت الفضاء بين قشين من تبن القبعة ثم غاصت في البحر. استدفأ جيرالدو في التبن الذي كان لا يزال يفوح برائحة أنطونيو، مكان للإقامة حيث تتشكّل اللغة. سيطفو فوق القبّعة حتى يبلغ أرضا يلقي فيها المرساة أو يصادف صيادا يستعمله من جديد.

69

رفض ميسْياس الطفل لأنه لم يكن من صُلبه. قزم، يستحيل ذلك؛ لأنه لم يكن هناك أحد كذلك في أسرته. لم تكن جوليا تعلم أن أخاها أنطونيو قزم وأن صاعقة يمكن أن تكون وراء حالته، فقالت لميسْياس إنه لا ذنب لها في الأمر وإنه لا أحد في أسرتها قزم. فما ذنبها هي؟

خلال ذلك الأسبوع، جاء شاب طويل القامة، الابن الأكبر لميسْياس، وقد قرر أن يبحث عن والده. لم يرهُ ميسْياس منذ أن كان بجلد ذي لون وردي ومن دون لحية. الآن، أصبح رجلا قوي البنية قادرا على العمل. تعرّف ميسْياس جسده في قوة الشاب، الذي يحمل ملامح وجهه نفسها، والعيوب نفسها على الحاجبين. شعر بشيء من الذنب وهو يرفض ابنه الجديد، لكن شعوره بالذنب سرعان ما تبخّر وهو يستقبل ابنه الآخر. استنتج أنه لا يدين بشيء إلى الطبيعة، صفر مقابل صفر، كانا متعادلَين. ثم إن الابن الأول كان كبيرا، تلقى تربية، بينما الآخر لم يكن قادرا على الكلام بعد.

ـ يمكنك أن تبدأ غدا، لدي عمل وغرفة من أجلك. قال لابنه البكر.

لم يكن ميسْياس يأخذ الصبي بين ذراعيه، ولا يوجه نظرة أو كلاما إلى جوليا. بما أنها كانت منشغلة بأمورها، لم يكونا

بحاجة ليتبادلا أفكارا عن العمل أو صناعة الملابس.

أخذت جوليا الصبي وخرجت.

محطة الحافلات. شجاعة معكوسة، تمشي القهقري. لن تقبل بالإهمال، وليس لديها من الصبر كي تنتظر أن يعترف ميسْياس يوما ما بطفل من صلبه، طبعا. لم تخبر لوديريا، التي لم تفطن لغيابها إلا عند نهاية النهار.

ـ لا تتصرّف معهما هكذا، إن جوليا ما زالت طفلة صغيرة.

ـ الطفلة لا تلد طفلا، يا لوديريا. إن كنت ترغبين في الالتحاق بها فاذهبي، أنا لا أريد امرأة زانية تحت سقف بيتي.

ـ هذا الشاب الذي جاء للتوّ، لست أنت من ربّاه كذلك، فكيف تعرف أنه ابنك؟

ـ أعرف ذلك، له ملامحي، وقامتي الطويلة.

ـ لا بدَّ أن جوليا في الكنيسة.

ـ بل لا بد أنها في محطة الحافلات، حيث تظن أنني سأذهب لأبحث عنها.

لم تجد لوديريا صديقتها في الكنيسة، ولم تحصل على أي خبر عنها من الجيران، ولا من ليلى، حيث يمكن أن تعود باندفاع عاطفي نحو بيت سيدتها السابقة إن قبلت بعودتها. لم تحظ لوديريا حتى باستقبال ليلى، وأرسلت من يخبرها أن

جوليا لم تكن هناك، ثم أغلق السائق البوابة. فتشت لوديريا أغراض جوليا، وفتحت العلبة التي كانت تجمع فيها النقود وهي تريها دائما حجم الأوراق المالية المتزايدة. كانت العلبة فارغة.

جلست لوديريا قرب الساعة الحائطية. كانت محطة الحافلات قد أُصلحت، وصارت لها جدران ملونة، كراسٍ مريحة، مكاتب تذاكر كثيرة، ووجهات متعدّدة.

70

كانت السفينة قريبة جدّا، حتى إن لون حافتها الذهبي صار برونزيا. كان المُجدّف رجلا قويّ البنية، يرتدي ملابس بحّار، وله هيئة عسكرية. جاء عبر المسلك الجانبي الذي تتخذه المرأتان العجوزان التوأمان، وهو الطريق الوحيدة بين البحر ومدخل الكهف. كانت المسافة قصيرة، والبحر هائج. أرْكبهم واحدا واحدا. الطفلان في الأمام وأنطونيو إلى جانبهما، ماريا وفريديريكو في الخلف، والبحار واقف يمخر عباب البحر بالمجذافين حتى بلغ الهيكل الأسود للسفينة الفاخرة. صعدوا عبر سلالم ضيّقة، وكان البحر يتلاعب بالزورق لكنه لا يتلاعب بالسفينة، التي كانت ثابتة فوق المياه. هناك في الزورق، استبدّ بهم الخوف وهم يضعون أقدامهم فوق السلالم بينما البحارة يصيحون وهم يشجعونهم على الصعود.

استقبلهم بحماسة أفراد طاقم السفينة الذين رفعوا الزورق واحتفظوا به. حيّا آل مالاكْياس من بعيد إنيْدو والمرأتين التوأمين، الذين كانوا ثلاثتهم عند باب الكهف فردّوا تحيّتَهم بابتسامة.

ـ الرحلة ليست شاقّة، لكنها طويلة.

ـ تعالوا، سوف أريكم مقصوراتكم.

ـ يمكن للطفلين أن يناما في المقصورة نفسها.

ـ وهذا الصغير يمكنه أن يتقاسم مقصورة مع أحد أفراد الطاقم.

تركوا الصُّرر في المقصورات. ماريا، نيكو، أنيزْيا وأونوفْري كانوا في مقصورة لها نافذة تطلّ على البحر. وكان أنطونيو يتقاسم مقصورة مع بحارَين شابَين، حديثي العهد بالمهنة.

ـ ما الذي يمكن أن يكون هناك في الأعلى؟ تساءلت ماريا.

تركت التوأمان وأنطونيو على سطح السفينة حتى يستمتعوا بما تبقى من شمس ذلك اليوم، وقام الزوجان بجولة عبرها. لم يسبق لهما أن رأيا مدينة بهذا الحجم، وهي مدينة عائمة فوق ذلك.

ـ هل يمكنني أن أساعدكما؟

ـ إننا نشاهد لا غير.

ـ لقد حان وقت الشاي، سأقودكما إلى القاعة الكبرى.

رافقا ذلك الرجل المتصلّب داخل بذلة حمراء بحواشٍ مذهّبة. أشخاص جالسون إلى موائد، يختلف بعضهم عنً بعض في الملابس والتصرفات، لكنهم جميعا يتقاسمون الحديث بالهمس، ولا أحد يتكلّم بصوت مرتفع. صمتٌ جدير بمستشفى، ورائحة تكاد تكون مثل رائحة المستشفى نظرا لنظافة الأرضية في الطوابق اللامعة.

كانوا لا يعرفون أحدا، ويشعرون بالخجل داخل ملابسهم القديمة. شدّت ماريا شعرها وراء أذنيها، واستقام نيكو في جلسته على الكرسي. قدموا الشاي الأحمر في فناجين صغيرة، مع خبز محمّص، مربى، وزبدة. نظرا إلى بعضهما بحماسة وشيء من الوقار. عندما بقيا وحدهما، أرختْ ماريا كتفيها.

ـ سوف يكون هذا مكلفا.

ـ إنيئدو أكد أنه لا يكلف شيئا، لأنهم يجدون امتيازا في نقل الناس إلى الميناء، هناك في المدينة التي يُقال إنها أكبر من المزرعة.

ـ ومن الميناء، إلى أين سنذهبُ؟

ـ ستكون هناك جوليا في انتظارنا.

ـ كيف ذلك؟ إن كانت لا تعلم حتى إن كُنتَ حيا أو ميتا؟

ـ كل من ينتظرون يذهبون إلى الميناء.

ـ وإن لم تكن هناك، فعليك أنت أن تنتظرها، وليس العكس.

ـ سوف ننتظر.

ـ في هذه الساعة، لا بدّ أن تيموتيُو هانئ يستمتع بالمزرعة التي هي من حقك.

ـ المزرعة ملك جوليا، وهي صاحبتها.

ـ أرافقك لأنني أشفق على حالك.

جاء أنطونيو رفقة أنيزْيا وأونوفْري، وجلسوا ثلاثتهم إلى المائدة.

ـ آه، يا لَها من متعة لذيذة! كانت الراهبتان في المدرسة تتناولان هذا طوال اليوم.

قدّم أنطونيو الطعام للطفلين واستمتع بأكل الخبز المحمّص ومربّى التوت. عندها أدركت ماريا طريقة تعامله الرقيق والتحفّظ اللذان رسختهما الراهبتان في نفسه.

جاءت امرأة طاعنة في السنّ تحمل صينية، بيدين واهنتين ومعصمين قويّين. ترتدي قبّعة ومريلة بيضاوين. كانت هي دولفينا، خادمة ليلى سابقا.

71

كان تيموتيُو ينام في ماخور موراوْ ويقضي النهار في المدينة، التي صارت محرومة من الضوء الآن. كانت الشموع تلقي بلون أصفر باهت على الوجوه القليلة المتبقّية في البلدة التي فرغت من ساكنيها. وانتشر خبر بأنهم قد شيّدوا محطّة توليد كهربائية أخرى في منطقة مجاورة، فرحلت الأسر وراء المصابيح. أولا، يذهب ابن أكبر ليستكشف مدينة جديدة، متسلّحا بشجاعته، ثم يعود ويأخذ معه الآخرين. أمّا المدرسة، فما زالت في المدينة الصغيرة؛ لأن فرانسواز كانت تريد أن تحافظ على إرث الراهبتَين ماري وسيسيل. وظهر بعض الأطفال الذين تخلّت عنهم أمّهاتهم المتواضعات في السلالم وهرَبن.

ـ هؤلاء الراهبات يتلقّين مالا من الخارج، ولديهنّ الوسائل لتربية هؤلاء الأطفال.

تلقّت فرانسواز برقية تؤكّد مهمّتها الجديدة المتمثّلة في إرساء النظام وترسيخ الأخلاق فيما تبقّى من البلدة. بل أكثر من هذا، عليها أن تعيد بناءها، وهو ما يمنحها فرصة للسيطرة على تلك الأرض التي لم يحسن أحد امتلاكها.

لم يترك المزارعون مزارعهم، بيد أن زوجاتهم، اللواتي تعودن على الضوء ووسائل الراحة في المدينة، ذهبن للاستقرار

في مدن أخرى. كان العمدة رجلا ضعيف الشخصية فسلّم زمام الإدارة إلى الراهب. المدينة، التي ولدت مع التيار الكهربائي، كانت تجهل استعمال الشمع، ومع أن سكّانها لم يتعوّدوا على الثّريات إلا مؤخّرا، فقد كان العمدة عاجزا على الاستغناء عن ضوء الكهرباء.

تحوّلت البلدة إلى مذود أعياد الميلاد. راهبات، وقسوس ونصارى متفانون. لم يكونوا جميعا يتوفرون على الوسائل للرحيل، لكن الكثير منهم وجدوا ذلك خيرا لهم. وبعد أن اختفى رجال يملكون السلطة، كان بوسعهم أن يعودوا ليشغلوا بعض الأماكن. نظّم القس انتخابات لشغل مهام إدارية، وأصبحت القُدّاسات عبارة عن اجتماعات لمناقشة قضايا بيروقراطية. طلب من سيدة أن تخيط علمًا عليه عبارة تقول «يرفرف لكنّه لا يغرق»، باللغة اللاتينية.

كان تيموتيُو يذهب إلى الساحة بعد القُدّاس، وهناك كان يحتشد الناس لمتابعة خطبه الواعظة.

ـ لقد رأيتُ الجهة الأخرى! الجهة التي يولد فيها النور، صدّقوني يا إخوتي!

كان يؤكّد أنه يعرف المعبر السريّ للأشياء، ذلك الذي إذا مرّ منه أحدهم لا يعود. أمّا هو، بمباركة الربّ، فقد استطاع أن يعود بمعجزة. كما أنه يملك القدرة على شفاء المرضى ويمكنه أن يبرهن على ذلك.

لم يكن العمدةُ-القسُّ يستنكر أقواله ما دام يلقي خطابه بعيدا عن مذبح الكنيسة. كان تيموتييُو يبيع فواكه مزرعة ريّو كْلارو في بلدات أخرى. كان يزور الماخور رجال من النواحي ومن مناطق بعيدة، فكان تيموتييُو يعقد معهم صفقات بين كؤوس البراندي وقطع الخنزير المقلي. معه كانت فتيات الماخور يشعرن بالأمان، وأرادت موورا أن يكون له ابن من إحداهن. حاول مرة لكن أصغر فتاة، تيريزينا، هي من حملت منه، ولم تتمكّن من الحفاظ على الجنين. في أرض جيرالدو لا يُخصِّبُ المرءُ متى شاء.

ـ إنك تصنع المعجزات وتفعل الدناءات. تشفي الناس وتسرق. اخرج من هنا، يا تيموتييُو.

القرية الصغيرة، أو ما تبقى من المدينة المضاءة، تفرقت. بالنسبة للكثيرين، لم تكن ثمّة من قيمة لشفاء يأتي على أيادٍ دَنِسَة، ولا يعتدّ به. بالنسبة لآخرين، الإيمان يمكن أن يخترقَ أي وحل، أي ظلام؛ لأن من يختارُ صانعَ المعجزات هو الرّبُّ، وليس الناسُ. بدأ تيموتييُو يأخذ أجرا على ما يقوم به، فكان يُشفي من آلام الرأس بوضع اليدين فوقها، يتلو صلاة ربانية ويقول للمريض أن يذهب بسرعة إلى بيته؛ لأن العلة سرعان ما تزول.

جلب الضوء أشخاصا من الريف، لكنه لم يقدم تفسيرا لغيابه المفاجئ. اختفت الشركة دون إشعار أحد ولا إخبار بالأمر.

كان الراهب يقول إن الذين بقوا هم أناس حقيقيون، أولئك الذين لا ينخدعون بضوء البشر، بل يبحثون عن النور الحقيقي، الذي لا وجود له إلا تحت سقف الرّب. وكان تيموتييُو يقول إن الناس ليسوا بحاجة إلى أيّ سقف، بل إليه هو، تيموتييُو، رجل ذهب إلى الجهة الأخرى وعاد منها. والدليل على ذلك صحن من طعام الكوراوْ لا يتعفّن أبدا، جلبه معه من هناك، وحضّرته الشقيقتان التوأمان. وضع الكوراوْ داخل قنينة زجاجية كان يحملها معه لإلقاء الخطب في الساحة.

ـ ما الذي تقوم به بالضبط هاتان العجوزان؟

ـ إنهما تطعمان الحاجَّ المُتعب.

ـ إذا كان إنييْدو قد زار آل مالاكْياس فهذا يعني أنه يستطيع أن يعود.

ـ إنييْدو هو الحارس، لا يمكنه أن يبرح المعبر. إنه حاميه.

ـ إذا كان إنييْدو قد جاء يبحث عن آل مالاكْياس، فلماذا لم يأت بحثا عنا نحن أيضًا؟

ـ آل مالاكْياس هم الأسرة الوحيدة التي بقيت في سيرّا مورينا. صعدوا إلى الجبل ورأوا المدينة من أعلى. بالنسبة لمن يكون في الأعلى يصبح الاتصال أكثر سهولة.

ـ لا تقُلْ حماقات، يا تيموتييُو!

72

دخلت جوليا إلى الحمّام ولم تر أثرا لدينورا. غيّرت حفاظة الرضيع، الذي سمّتهُ أنطونيو تخليدا لذكرى أخيها الأوسط، ذلك الذي كان يلعب معها. شربت قهوة ثم تقدّمت نحو شبّاك التذاكر. لم تتغيّر الوضعية ولم تكن هناك أية حافلة نحو سيرّا مورينا، مكان عبور من دون محطة. فكان عليها أن تنزل أثناء الرحلة وتواصل طريقها مشيا تحمل أنطونيو بيد ذراعيها.

أرضعت صغيرها في مكان مستتر، بعيدا عن عيون المسافرين. وضعت الملاءة، رتّبت حقيبة الرضيع، وظلّت تنتظر عند باب الحمّام. كانت تراقب النساء اللواتي يدخلن ويخرجن، بعضهنّ على عجل وأخريات يزجين الوقت. بعضهن شابّات، وبعضهن سيّدات مسنّات. كانت تختارهن من عيونهن، وتسألهن عن الساعة حتى ترى إن كانت تحظى بثقتهن. وفجأة، جاءت المرأة ذات اللباس البنفسجي، التي كانت ترتدي الآن ملابس كستنائية اللون. لم تتعرّف جوليا، التي صارت أكثر نضجا وثقة في النفس. اهتمّت المرأة بالرضيع، وأخذت تقترب. طبعت جوليا قبلة على جبين أنطونيو، رسمت علامة الصليب في ذهنها واستجمعت عزيمتها.

ـ هل يمكنك يا سيّدتي، أن تأخذيه عني ريثما أذهب إلى الحمّام؟

لم تتفحّص المرأة ذات الملابس الكستنائية وجه جوليا، أخذت الطفل بمهارة مربّية أطفال في الحضانة.

ـ اذهبي مطمئنّة.

ولجت جوليا الحمّام، غسلت يديها دون أن تنظر إلى نفسها في المرآة، ثم جفّفتهما على حواشي تنّورتها. ارتعش ذقنها. لم يسبق لها قطّ أن تملّكت شيئا يخصّها، ولن تتملّكه الآن. غادرت الحمّام، لم تكن هناك المرأة ذات اللباس الكستنائي، ولا أنطونيو.

توجّهت نحو الشباك فارغة الذراعين، حقيبتها فوق كتفها.

ـ هل لديكم تذاكر إلى البحر؟

ـ البحر شاسع، سيدتي! أي مكان في البحر تريدين؟

ـ أي مكان، لا يهمّ.

ـ هناك تذاكر إلى سانْتوسْ حيث يوجد ميناء.

ـ أعطني تذكرة.

سوف تعود وحيدة كما خرجت، حتى إن لم تكن وجهتها هي سيرّا مورينا. نقطةُ انطلاقها لم تكن هي المنظر الطبيعي، بل الضّجة التي ملأت بيت والديها. يقولون إنّ مزيدا من الصواعق تسقطُ في البحر. إن أصابتها صاعقة، يمكنها أن تعود إلى بيتها.

73

وصلت السفينة إلى الميناء، فنزل نيكو وأسرته. كان أنطونيو يشدّ يدي أنيزْيا وأونوفْري. كانت ماريا تستعمل مروحة يدوية، هدية من سيدة ثرية ومُدْمنة على القمار والرهان في كازينوهات السفن البحرية.

ـ خذيه! يكفي تحريكهُ لإيقاف أي بكاء.

كان هناك حشد في الميناء. أشخاص يتوادعون، وآخرون يلتقون من جديد. كانت جوليا وسطهم، تنظر إلى أفراد الطاقم ينزلون جميعا على إيقاع الأمواج، يقومون بوقفات أثناء مشيهم.

كانت جوليا وأشقاؤها قريبين بعضهم من بعض. وبينهم كان مسافر يدير عنقه بسهولة، يبحث عن أقارب. كان الرجل يرتدي معطفا طويلا وقبّعة. وكان هذا المسافر وحده كافيا ليمنع جوليا ونيكو من رؤية بعضهما بعضا. كلما تقدم واحد من آل مالاكْياس خطوة، تقدّم المسافر خطوة أخرى، فيما يشبه رقصة مُجرّبة. كان مسافرون آخرون ينضمّون إلى الرقصة، وهم يدفعون حقائبهم.

توقّف أنطونيو ليعقد رباط حذاء أنيزْيا. رأت جوليا القزم من ظهره، عند قدم الطفلة. شعرت بالارتياح وهي ترى أنها أحسنت التصرّف؛ لأن ابنها لن يكون عبدا لطفل آخر، لن

يذهب للعمل في أسرة ويسكن في خلفية البيت، على الأقل ليس أمام عينيها. خفّت كثافةُ المسافرين، بعضهم كان يهرول ليلتحق بآخرين. كان نيكو ينظر إلى جهة، وجوليا تنظر إلى جهة أخرى. رسمت نظرتاهما خطّيْن متوازيين، هو في الأعلى، وهي في الأسفل. كانت هناك إمكانية أن تلتقي النظرتان، لكن نيكو تقدم خطوة إلى الأمام فتحطّمت زاوية الرؤية. بسبب خطوة واحدة، خرجت جوليا من مجال رؤيته.

في المياه العَكِرة، الموادُّ لا يرى بعضها بعضًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أندريا دل فويغو

وصلت رواية آل مالاكياس إلى القائمة القصيرة لجائزة ساو باولو للأدب سنة 2011، والقائمة القصيرة لجائزة جابوتي البرازيلية سنة 2011. ثم، وفي السنة نفسها، حصلت على جائزة جوزيه ساراماغو بالإجماع.

قال عنها أحد أعضاء لجنة تحكيم الجائزة، السيد جوزيه لويس بيشوتو: بعد الاكتفاء من النظر إلى المشاهد الريفية البِكر، تثيرُ رواية آل مالاكياس أشدّ المشاعر المتعلّقة بالموت والمآسي.

قدّمت لنا أندريا دل فويغو عملاً لن يترك أحداً دون أن يلمس مشاعره. رواية قاسيةٌ، شاعرية، أصيلة. في التشابك الجوهري للقصص التي يتكوّن منها النص، للكلمات رائحة، وطعم، ويمكنُ ملامستُها.

الرواية تحفةٌ حقيقية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

9 789921 712360

دار الخان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

Info@daralkhan.com @DarAlkhan_kw